

رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين عام (٨٦٧ - ٨٧٠م) / (٢٥٤ - ٢٥٧ هـ)

(دراسة تاريخية نقدية)

إعـــداد

د / على أحمد محمد السيد

مدرس تاريخ العصور الوسطى

بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

(فرع دمنهور)

رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين
عام (٨٦٧ - ٨٧٠م) / (٢٥٤ - ٢٥٧هـ)
(دراسة تاريخية نقدية)

شهد القرن الماضى نشاطاً واسعاً فى مجال نشر نصوص الرحلات الأوروبية خلال فترة العصور الوسطى إلى الشرق العربى ، فمنها مانشر باللغات الحديثة كالإنجليزية والفرنسية تيسيراً للاطلاع أو بلغتها الأصلية اللاتينية أو غيرها حرصاً على الأصالة ، وكانت رحلة برنارد قد لقيت اهتماما واضحاً بتقديها غفلاً للقراء ، فقد قام الباحث الألمانى ريجنالد رورخت بحصر أربعة مخطوطات تضمنت نص الرحلة وكذلك خمس إصدارات لها باللغة اللاتينية فى الفترة السابقة على القرن المذكور ، وخلاله تم نشر النص عدة مرات ، لعل أهمها إصدار عام ١٨٤٨م . إذ قام «رايت . ت» بنشرها باللغة الإنجليزية بلا تحقيق [١] ، ثم نُشر النص باللغة اللاتينية فى عام ١٨٧٤م . متضمناً بعض الحواشى التى لم تشف من غليل [٢] ، كذلك حرص سير أوبرى ستيورات فى عام ١٨٨٩ م. على تضمين نص الرحلة فى الموسوعة الضخمة «مجموعة نصوص رحلات حجاج فلسطين» وذلك باللغة الإنجليزية ، ويلاحظ أنه حرص على عدم التدخل بإجراء أى تعديل فى النص مكتفياً بترجمته حرفياً [٣] . وفى القرن الحالى صدر آخر نشر لنص الرحلة على يد «جون ولكنسون» فى عام ١٩٧٧م . وذلك فى أولى مجموعاته عن الحجاج الأوروبيين إلى فلسطين التى تحمل مسمى «حجاج القدس قبل الحروب الصليبية [٤]» ، وفيه قدم الناشر قليلاً من الإضافات المقتبسة من مخطوط ريمس RHEIMS وبعض الإيضاحات التى أدخلها من تلقاء نفسه وكذلك بعض التفسيرات فى شكل هوامش اكتفت بتسليط أضواء على جزئيات محدودة ، إلا أن الباحث خلال دراسته فضل الارتكان الى النص الذى نشره سير أوبرى ستيورات بصفته نصاً أساسياً لم يمسه إضافة أو تحريف مع الوضع فى الاعتبار الإضافات اللاحقة .

---

(١) Wright , T., Early Travels in Palestine , London 1848 , pp . 23 - 41,

ولمعرفة المزيد عن مواضع حفظ المخطوطات الخاصة بالرحلة ، والإصدارات المبكرة لها ، وكذلك التعرف على جهود ناشرى الرحلة فى القرن الماضى بلغتها الأصلية واللغات الحديثة . راجع :

Ruhricht.,R. Chronologisches Verzeichniss der Auf die geographie des Heiligen Landes , Bezuglichen Literature Von 333 Bis 1878 , Berlin 1890, 2.17

(٢) Tobler, T. , Molinier, A., (e d s.)
Itinera Hiero soly mitana , 2 vols. , Publications de la Société de L' Orient Latin , Série Géographique 1,2, Geneva 1874. p.p. 307 - 20

(٣) Bernard The Wise , A. Pilgrimage to the Holy Places , 870 . AD., In Palestine Pilgrims texts Society , Vol. III , London 1989 , pp . 3 - 11

(٤) Bernard The Monk , A Journey to the Holy Places and Babylon, ed. John wilkinson, Jerusalem Pilgrims Before The Crusades , England 1977 , p.p. 141 - 145.

ونظراً لأهمية الرحلة التي سوف يبرزها الباحث في موضعها وكونها تعكس رؤية أوروبية لكثير من الجوانب في المجتمعات التي مرت بها غرباً وشرقاً حيث الغرب الأوربي ومصر وفلسطين آثر الباحث أن يتناول المادة الواردة بها بالتحليل والنقد في دراسة تاريخية صنفها إلى جوانب سياسية وعمرانية واقتصادية واجتماعية وختمها بملاحظاته وأهم النتائج التي خلص إليها مدعمًا بحثه ببعض الخرائط التوضيحية، ثم أعقب ذلك بعرض الترجمة العربية لنص الرحلة كي يضع حقائقها مجردة بين يدى القارىء العربي إذا ماأراد التحقق بنفسه من جزئياتها أو تتبع البلاد والمدن التي مرت بها الرحلة متضمنة ماأدخل عليها من إضافات وتفسيرات حرص الباحث على وضع علامات مميزة لها.

وفي بدء هذه الدراسة ينبغي التعرف على مدون الرحلة وتاريخها ، فحقيقة لم نعثر في المصادر المتاحة على مايمكننا من التعرف على شخصية برنارد الحكيم BERNARD THE WISE أو برنارد الراهب BERNARD THE MONK صاحب هذه الرحلة ومدونها وكل ماعرفناه عن هذه الشخصية كان من خلال ماكتبه هو في رحلته فهو راهب من جبل سانت ميشيل في برتاني BERTANY (مقاطعة في شمال غرب فرنسا) دفعته الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين إلى الخروج لزيارتها وهو بذلك يمثل النمط المألوف للمثقفين من أهل أوروبا في عصورها المظلمة الذين أفرزتهم الحركة الرهبانية البندكتية الواسعة التي شملت معظم أرجاء الغرب الأوروبي . ويذكر برنارد أنه اصطحب معه في رحلته راهبين أحدهما راهب إيطالي يدعى ثيودو مند THEUDEMUN DUS من دير القديس فينسنت ST. VINCENT الواقع في مقاطعة بنفينتو - بنفيتيوم BENEVENTO - BENEVENTUM[٥] أما الثاني فهو أسباني يدعى ستيفن STEPHEN.

كان الهدف من الرحلة وفقاً لما أورده صاحبها هو زيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس . أما ماجاء من وصف للأماكن الأخرى في الأراضي المقدسة في فلسطين وكذلك بعض البقاع في شمال مصر فضلاً عن البلاد التي وقعت على خط سير الرحلة في أوروبا لم تكن هي المقصودة من قيام الرهبان الثلاثة برحلتهم وإن كانت قد دخلت في دائرة اهتمامهم بحكم وقوعها على الطريق ولثقافتهم الدينية ولعل حرص أبطال الرحلة الثلاثة على التوجه إلى البابوية في روما للحصول على المباركة والمساعدة لهم في مشروعهم يقدم الدليل على أن الهدف منها هو الحج ، ثم تقديم وصف يكون بمثابة الدليل كي يستفيد منه الزوار المسيحيون حينما يقصدون بيت المقدس ، ولذا

---

(٥) أسس اللمبارديون دوقية بنفنتيو التي يقع مركزها على بعد حوالي ١٤٢ ميل جنوب شرق روما إلى جانب دوقية سبوليتو SPOLETO كما أسسوا دوقتي تارنتوم TARENTUM وفروبلي FRIULI في الشمال منها وهكذا أصبحت البابوية في روما محاصرة بدوقيات لومباردية غير أن بنفنتيو وسبوليتو خضعتا للسلطة البابوية بمساعدة من الامبراطور شارلمان Charlemagne ٧٦٨ - ٨١٤م ، ولمعرفة المزيد عن علاقة المقاطعة بالبابوية راجع :

Walter Vllmann , A Short History of the Papacy in the middle Ages, 2 nd, ed., London 1974 , pp 48 , 79, 118, 132 , 174.

فمن الجائز إطلاق لفظة الحجاج على الرهبان الثلاثة إذ أنها اللفظة الواردة بالمصادر حين الإشارة لكل من يتوجه إلى الأراضى المقدسة فى الشرق بغرض الزيارة.

أما عن **تاريخ الرحلة** فبداية : حدد برنارد الحكيم تاريخ رحلته بأنها وقعت فى عام تسعمائة وسبعين للميلاد ، بعد الحصول على مباركة البابا نيكولاس NICHOLAS للقيام بالرحلة (٦) ولم يحدد أى نيكولاس هذا ، وبالبحث تبين أن أول من تولى منصب البابوية ويحمل هذا الاسم «نيكولاس» وذلك فى الفترة من ٢٤ أبريل ٨٥٨ إلى ١٣ نوفمبر ٨٦٧ م./ ٥ محرم ٢٤٤ إلى ٢٢ ذى القعدة ٢٥٣ هـ ، أما أقرب الباباوات تاريخياً الذى حمل بعده ذات الاسم فهو نيكولاس والذى عرف بإسم نيكولاس الثانى الذى تولى البابوية فى الفترة من ١٨ ديسمبر ١٠٥٨ إلى ٢٧ يوليو ١٠٦١ (٧) م./٢٨ شوال ٤٥٠ إلى ٥ رجب ٤٥٣ هـ ، وبداية فإن برنارد قد سجل خطأ تاريخيا واضحاً تتمثل فى عدم إتفاق التاريخ الذى حدده لرحلته مع تاريخ تنصيب الرجلين الذين حملا اسم نيكولاس.

على أن هناك من الباحثين من يشير إلى أن الرحلة تمت حوالى عام ٨٧٠م . أو فى الفترة ما بين عامى ٨٦٧ ، ٨٧٠م (٨) ولم نجد لدى هؤلاء مايرتكزون عليه بوضوح فى تحديد هذا التاريخ ، إلا أن برنارد أورد أحداثاً تاريخية تساعد الباحث على إيجاد الأسانيد التى يمكن التحقق منها عن تاريخ قيام الرحلة وعودتها ، ومن ذلك أنها مرت بميناء بارى BARRI (٩) الإيطالى فى أثناء السيطرة الإسلامية عليه ، وفى هذا

---

(٦) HANS Kühner , Encychlopedia of the Papacy , trans From German by Kenneth J. Northcatt , London 1959, pp. 49 - 50

انتخب نيكولاس الأول ليعتلى كرسى البابوية ، وهو يعتبر من أعظم شخصياتها شأناً ، وكان قد تلقى تعليماً فى قانون الكنيسة وتقاليدها ، عمل فى مساعدة عدد من الباباوات فتدرب على منصبه وجمع فيما طمع إليه بفضل مابثه من أفكار ، وماكان عليه من فصاحة إذ كان يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ، فكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها فى أقاليم أوسع مما قبل اعتلائه المنصب ، راجع: Walter VII: mann , Op . Cit. pp. 102 - 104 .

(٧) الإسم الحقيقى لهذا البابا هو جيرهارد البرجندى Gerhard of Bergandia وفى عهده انعقد مجمع اللاتيران الكنسى ١٠٥٩ م واتخذ قراراً بأن انتخاب البابا هو من حق الكرادلة فقط لمعرفة المزيد عن تلك الشخصية ، راجع :

Hans Kühner ,Op. Cit, p. 72

(٨) عزيز سوريال عطية : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٩٠ م ، ص ٣٠ ، راجع أيضاً :

Bernard the Monk , ed., Op. Cit, p. 141, n. 2

(٩) بارى : مدينة ساحلية تقع عند مدخل البحر الإدرياتى من الجهة الغربية والميناء يعد العاصمة العسكرية لإقليم لمبارديا ، انظر :

Bury, J. B, History of the Eastern Roman Empire , London 1912

الصدد تشير المصادر إلى أن مسلمى شمال أفريقيا هاجموا إقليم دالماشيا DALMATIA وحاصروا مدينة راجوزة RAGUSA الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى مدة خمسة عشر شهرا فاستنجد الأهالى بالإمبراطور البيزنطى باسيل الأول BASSEL I والذى ما لبث أن تولى العرش فى عام ٨٦٧ حتى ٨٨٦م/ ٢٥٣ - ٢٧٣هـ فأرسل أسطولاً لنجدتهم فحول المسلمون هجومهم تجاه بارى واستولوا عليها (١٠) . وهكذا نجد أن بدء الرحلة ارتبط باستقبال البابا نيكولاس الأول لأفراد الرحلة الذى انتهت فترة بابويته فى نوفمبر من عام ٨٦٧ ، وليس نيكولاس الثانى الذى خلفه بما يقارب القرنين، كما ارتبط بدؤها بإستيلاء المسلمين على بارى، ربما فى نفس العام حينما تولى باسيل العرش البيزنطى . وتحتوى الرحلة فى أحداثها التالية على مايؤكد وقوعها فى فترة الأعوام الثلاثة المذكورة .

وفيما يختص بأهمية الرحلة فقد اجتمعت عدة أسباب كى تعطى لرحلة برنارد أهميتها التاريخية ، فصاحبها كان شاهد عيان للأحداث بل هو بطلها ، وهو الأوربى ورجل الدين المسيحى المحمل بثقافات أوروبا فى العصور الوسطى بكل ماعرف عنها من اضمحلال . وهو الحاج الذى دفعه شغفه إلى زيارة الأراضى المقدسة بعد ترحاله بين عديد من البلاد المصرية . وكانت زيارته فى وقت اضطربت فيه الأحوال السياسية داخل الدولة العباسية ، إضافة الى بروز دولة الأغالبة فى شمال أفريقيا ، فكان المجال مفتوحاً أمام هذا الحاج المسيحى كى يرصد جانباً مما تعج به الساحة من أحداث وحركة ، وهذا ساعد فى إلقاء بعض الضوء على جوانب من الصراعات بين القوى السياسية فى حوض البحر المتوسط . كما تأتى أهمية الرحلة من أنها قدمت بشكل واضح مشاهدات شكلت مادة خصبة للتعرف على بعض النواحى الحضارية فى مجال العمارة والعملة والزراعة والتجارة والطرق والنظم ، فضلاً عن إلقائها بعض الضوء على الأوضاع الاجتماعية القائمة ، وعلى الرغم من أن بعض المعلومات التى قدمها برنارد كانت مألوفة فإنها تعد تأكيداً لما أوردته مصادر هذه الحقبة وتوضيحًا لها .

وبعد التعرف على صاحب الرحلة ورفيقيه وبعد إبراز هدفها وتاريخ وقائعها وأهميتها ،

---

(١٠) قسطنطين السابع (بورفير وجنيتوس) : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران ، بيروت ١٩٨٠ م ، صـ ١٠٨ - ١١٠ . يوجد بعض اللبس حول تاريخ سيطرة المسلمين على بارى ، إذ يذكر هذا المصدر أن المسلمين سيطروا عليه فى عام ٨٧١م ، ثم نجد المصدر نفسه يشير إلى أن المسلمين أقروا ذلك بعد تولى باسيل الأول العرش ورفع الحصار عن راجوزة ، بينما يذكر بيورى أن المسلمين سيطروا على بارى عام ٨٤١ م . فى حين يشير باحثون آخرون إلى سقوط الميناء فى أيدى المسلمين عام ٨٤٦ م . وعودته إلى البيزنطيين عام ٨٧١ م. ، انظر :

Bury , J. B. , Op. cit , p. 313 , Cambridge Medieval History, vol IV, The Byzan tin Empire , Part I , Cambridge 1960 , p.p. 728 - 729,

أرشيبالد (لويس) : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، ومراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢١٨ .

يتعرض البحث لأبعادها خلال الصفحات التالية فى دراسة تاريخية نقدية مع الالتزام بتصنيف مادتها إلى أربعة محاور أساسية وبداية فقد ورد فى رحلة برنارد الحكيم بعض الأحداث والمواقف الشخصية وجدها جديرة بأن يذكرها فى إطار حديثه العام عن تفاصيل الرحلة ومنها ما ارتبط بالجوانب السياسية تخص المجتمعين الأوربى والإسلامى حيث جنوب إيطاليا ، وكل من مصر وفلسطين ، وذلك خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى أواسط الثالث الهجرى . وقبل التعرف على الرؤية السياسية لهذا الزائر الأوروبى داخل المجتمعات التى مرت بها رحلته ، فيبدو لزاماً التعرض بإيجاز إلى أحوالها السياسية المعاصرة للرحلة .

ففيما يتعلق بالبلاد الإيطالية التى انطلقت منها الرحلة فكانت تعيش نفس الظروف التى شملت باقى أرجاء الإمبراطورية الكارولنجية من اضطراب فى أخريات عهدها ، ووفقاً لتقسيم معاهدة فيردان FERDEN ٨٤٣م. وقعت إيطاليا التى اختلطت بها الأجناس واللغة والتقاليد وفقاً لظروف سياسية ضمن القسم الأوسط المحصور بين القسم الجرمانى شرقى نهر الراين والقسم الغربى الذى يضم المقاطعات الغالية الرومانية (١١) ، كما أحاطتها عدة ظروف ساعدت فى تمزيقها سياسياً بين عدة قوى تطرقت الرحلة إلى جانب منها وهى : الإمبراطورية البيزنطية التى ما لبثت أن حاولت استعادة هيبتها ، وأراضيها من البابوية فى ظل السياسة القوية للإمبراطور باسيل الأول ، والأمراء اللمبارديين ، والبابوية ، وكذلك المسلمين فى الجنوب الذين تدخلوا بدعوة من المدن الساحلية فى المنازعات التى نشبت بينها وبين اللمبارديين فى الداخل (١٢) .

أما عن مصر والشام اللتين هما هدف الرحلة فقد كانتا تخضعان لسيادة الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، التى كانت تعانى من تزايد النفوذ التركى فى البلاط والجيش ، على حين انفصلت أجزاء منها فى الغرب . فبعد عدة حروب أهلية استقل بنو الأغلب عملياً عنها (١٣) ، فى حين واجه الأمويون فى الأندلس كثيراً من الصعاب . وكانت أهم الأحداث التى شهدتها مصر والشام وقت الرحلة أن وصل أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها باكباك التركى (منتصف سبتمبر ٨٦٨م. / ٢٣ رمضان ٢٥٤ هـ.) متقلداً القصبة (أى العاصمة وتضم الفسطاط

---

(١١) ديفز (هـ . و) : أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة د. عبد الحميد حمدى محمود ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ١٩٥٨م. ، ص ٦٤ - ٦٦ ؛ راجع أيضاً : محمد رفعت : الأطلس التاريخى (فى العصور القديمة والمتوسطة والحديثة) ، لندن (ب ت) ، الخريطة ص١٨ .

(١٢) ابراهيم طرخان: المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢١١- ٢١٢ ؛ راجع أيضاً: وديع فتحى عبد الله : بيزنطة ومسلموا جنوب ايطاليا وصقلية فى عهد باسيل الأول المقدونى (٨٦٧ - ٨٨٦م. / ٢٥٣ - ٢٧٣ هـ.) ، الاسكندرية ١٩٩٢ ، ص ١٢.

(١٣) أسرة الأغالبة تنتسب إلى جدهم الأغلب بن سالم التميمى ، تمكنوا من تأسيس دولة قوية لهم فى شمال إفريقيا فى أخريات القرن الثامن الميلادى ، امتد نفوذها ليشمل تونس وطرابلس وصقلية لكنها ظلت موالية للخلافة العباسية . وكانت ذات حضارة إذ اهتم حكامها بالآداب والعلوم والفنون ، وظلت دولتهم درعاً واقياً ضد توسع الشيعة حتى سقطت على أيدهم فى سنة ٩٠٨م./ ٢٩٦ هـ. ؛ راجع : السيد عبد العزيز سالم ، العصر العباسى الأول ، الاسكندرية ١٩٧٧م. ، ص ١٩٣ - ١٩٥ .

والعسكر) دون الأعمال الخارجة عنها ، ومالبثت أن استقرت له بمصر الأحوال بعد الانفراد بشئونها السياسية والمالية ، وذلك بالتخلص من عامل الخراج أحمد بن المدبر وعامل البريد شقير الخادم، كما تهيأت الظروف أمامه بأن فرض ولايته على مجمل البلاد حتى برقة ، ثم توجه إلى الإسكندرية فى الحادى عشر من يوليو ٨٧٠م./ ، الثامن من رمضان ٢٥٧ هـ. بعد لقاء مع واليها إسحق بن دينار خارجها، فسمح له ابن طولون بالبقاء على ولايتها ربما لخبرته بها . أما بلاد الشام حيث جندى فلسطين والأردن فكانا تحت ولاية أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى الذى لم تنته ولايته إلا فى عام ٨٧١م/٢٥٧ هـ. ، ثم استقر الأمر أخيرا لابن طولون عليهما فى عام ٨٧٨م/ ٢٦٤ هـ.(١٤) . وهذه الأحداث تبين أن الأوضاع السياسية فى البلاد التى شهدت وقائع الرحلة لم تكن مستقرة . ففى الشرق ، كانت هناك ثلاثة كيانات لمجتمعات إسلامية مر بها الزوار وهى :- الإسكندرية تحت ولاية ابن دينار ، والفسطاط والعسكر مع بقية أقاليم مصر الشمالية فى ظل ولاية ابن طولون ، وكذلك جندى فلسطين والأردن تحت ولاية أحمد بن عيسى ، وذلك برغم تبعية تلك الولايات جميعاً لسيادة العباسيين فى بغداد .

وفى وسط تلك الظروف السياسية تبدأ أحداث الرحلة من روما بعد الحصول على مباركة من البابا وهذا فى حد ذاته يبرز مدى اهتمام البابوية بالحج إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين إلى الحد الذى معه كانت تقدم دعماً مالياً تشجيعاً لذلك الغرض ، ومن ناحية أخرى فإن هذا يعكس تزايد نفوذها دخل المجتمع الأوربى وقدرتها على الحركة فى كثير من الاتجاهات ، وبعد مغادرة الرهبان الثلاثة مدينة روما ، ذكر برنارد أنهم واصلوا طريقهم إلى مدينة بنفنتيو وفى مواضع متناثرة نوه إلى بعض الوقائع السياسية التى شهدتها المنطقة، ومنها ما نشب من نزاعات بين الأمراء اللمبسارد التى انتهت باستدعاء الامبراطور الكارولنجى لويس الثانى LOUIS II (٨٤٣ - ٨٧١م)، وكذلك تناول برنارد شخصيات كارولنجية أخرى بالذكر مثل تشارلز CHARLES ولوثر LOTHAIR ، أخوا لويس ، وذكر أن أهل المدينة من المسيحيين، وربما لهذه الإشارة أهميتها . إذ كانت المدينة قد سقطت فى يد لويس الثانى لفترة امتدت من عام ٨٦٦ . حتى ٨٧١م. وفى إبراز برنارد للمسيحيين كطرف ممثل فى الجانب الكارولنجى مايشير إلى وجود طرف آخر ، وبالفعل فقد كان هو الطرف الإسلامى حيث كان المسلمون قد وصلوا بغاراتهم حتى مدينة روما ذاتها عام ٨٤٦م. ، بل سيطروا على بنفنتيو فى أثناء غاراتهم المتقدمة وذلك فى عام ٨٦٠م.(١٥) أى قبيل إنطلاق الرحلة ببضع سنوات ، ثم خرج برنارد من بنفنتيو فى طريقه إلى

---

(١٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق : محمد كرد على ، دمشق (ب. ت) ، ص ٤٢ - ٥٠ ، وهو يحدد تاريخ تولى ابن دينار الاسكندرية باسم ابن طولون بعام ٢٥٦ هـ ، أما عن التاريخ المذكور فى المتن فانظر : الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تصحيح رفن كست ، بيروت ١٩٠٨ ، ص٢١٦ ؛ وأيضاً : ولاة مصر ، تحقيق : حسين نصار ، بيروت ١٩٥٩م ، ص ٢٤٢.

(١٥) Christie Neil , The Lombards , The Ancient Longobard 3 , - 10 U.S.A. 1995 , pp. 206 , 209 , 217

ميناء بحرى ينطلق منه إلى هدف رحلته فى الشرق فوصل أولا إلى ميناء باري الساحلى حيث عنى بالإشارة إلى تحصيناته الصناعية والطبيعية ، والجدير بالذكر أن المصادر أقرت الدور الذى لعبته هذه المدينة خلال حكم المسلمين لها فى مصر والمناطق المتاخمة فى وسط وجنوب إيطاليا وأنهم أقاموا بها مسجداً جامعاً بعد الفتح (١٦) وسجل برنارد هذه الحقائق مؤكداً على وقوعها.

وبعد أن وصل الرفقاء إلى باري ، توجهوا إلى حاكمها سلطان SULDANUS ، ووفقا لما ذكره برنارد فذلك هو اسمه وليس لقبه مصححا اعتقاد بعض الباحثين (١٧) ، وهناك طلبوا التصريح لهم بالذهاب إلى الإسكندرية . وأكد برنارد فى هذا الموضع على أن حاكمى الإسكندرية وبابيلون (أى الفسطاط) كانا يعملان تحت إمرة أمير المؤمنين خليفة بغداد وسامراء ، وهكذا قدم أكثر من معلومة لها طابعها السياسى ، تشير إلى أنه أقبل على اكتساب معلومات قبل رحيله إلى البلاد التى قصدها ، ليكون محيطا بأوضاعها المختلفة حتى أدرك حقائق مثل : جميع المسلمين عدا مسلمي الأندلس يخضعون تحت لواء الخليفة العباسى فى بغداد ، كذلك أدرك حقيقة أنه يقيم إبان الرحلة فى مدينة سامراء التى عبر عنها بمسمى اكسيناري AXINARRI إضافة إلى أن الرحالة استخدم لقب أمير المؤمنين الذى عادة ما يطلق على الخليفة العباسى ويحتمل أنه عرف تلك المعلومات فى أثناء تواجده بين المسلمين نظرا لما اعتادوا عليه بذكر اسم الخليفة والدعاء له من فوق المنابر داخل المساجد .

غير أن اختيار أفراد الرحلة الثلاثة لميناء باري ومنه إلى ميناء تارنتوم TARUNTUM الواقع إلى الجنوب لكى ينطلقوا منه إلى هدف رحلتهم برغم خضوعه للمسلمين ما يلفت النظر ويثير التساؤل ، لماذا لم يتجهوا إلى ميناء آخر يقع تحت سيطرة القوى الأخرى المتنافسة فى جنوب إيطاليا . ويمدنا برنارد نفسه فى موضع آخر بما يعد تفسيرا لذلك إذ يشير إلى الأحوال السياسية السيئة التى سادت البلاد الإيطالية وانتشار الأشرار بها الذين يسرقون وينهبون حتى أنه لايمكن لمن يمر بها أن يسير فى أمان إلا فى صحبة كبيرة مسلحة ، وبينما كان الوضع كذلك داخل إيطاليا ، أقر برنارد بأن الأمير المسلم فى باري اظهر تسامحا واضحا بتقديمه التسهيلات ومد يد العون للمسيحيين المتجهين لزيارة المقدسات فى فلسطين سواء بالسفن أو بتسهيل مرورهم إلى مصر وغيرها من البلاد التى يجتازونها وإضافةً إلى ذلك يمكن القول بأن الذهاب إلى بلاد اسلامية يكون أكثر يسراً حين يكون الخروج من ميناء خاضع للسيادة الاسلامية.

على أية حال ، أتاحت المعلومات المتفرقة التى قدمها لنا برنارد فرصة التعرف على طبيعة العلاقات السياسية بين القوى المختلفة فى جنوب إيطاليا ومايتعلق منها بالقوى الأخرى ؛ حيث

---

(١٦) قسطنطين السابع : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ راجع أيضاً : ارشيبالد (لويس) : المرجع السابق ، ص ٢١٥ ؛

Bury , J. B, Op. Cit , p. 213

(١٧) Ibid , p.315 CF . Also.,

أرشيبالد (لويس) : المرجع السابق ، ص٢١٨ .

أشار إلى قوة مسلمي الجنوب الايطالي وسيطرتهم على بلاد منها تارنتوم ، وباري التي اتخذت عاصمة لهم بدليل إقامة الأمير المسلم فيها ، وفي المقابل تعرض برنارد إلى قوة أخرى في الجنوب الإيطالي، وهم المسيحيون حيث تألفت في نظره من الأمراء اللمبارد المتنازعين في ظل سيطرة الإمبراطور الكارولنجي لويس الثاني، بعد أن فرض نفوذه على بنفنتيو وباقي الممتلكات اللمباردية . ومن القوى التي ذكرها برنارد دولة رومانيا ROMANI موضحا أن الأوضاع بها غير مستقرة ولعله يقصد بها الجزء الغربي من الإمبراطورية الكارولنجية حيث فرنسا . نظرا لأن أهلها كانوا يتحدثون لغة مشتقة من اللاتينية تعرف باللغة الرومانية [(١٨)] . وحينما ذكر أن سلطان أمير باري منح الحجاج خطابين يتضمنان وصفا لهم معرفا بأصولهم وهويتهم موجهين إلى كل من والي الاسكندرية ووالي بابلونيا (الفسطاط) بغرض تسهيل دخولهم إلى البلاد المصرية ، فذلك يؤكد على قيام علاقات قوية بين الكيانات الإسلامية المختلفة التي استظلت براية الخلافة العباسية التي لاتزال توحد كلمة المسلمين سواء أكانوا من الأغالبة أم من أتباع القادة الأتراك لدى الخليفة .

كذلك دون صاحب الرحلة مشاهدته لأحداث عايشها بنفسه عندما رصد حركة السفر في ميناء تارنتوم ، وذكر أن ستة منها حملت تسعة آلاف أسير من أهالي بنفنتيو إلى الموانيء الإسلامية ، وهذه إشارة لها دلالتها إذ تؤكد على أن الأعمال الحربية ظلت متواصلة بين مسلمي الجنوب الايطالي والأمراء اللمبارد ، الأمر الذي يفسر استعانتهم بالامبراطور الكارولنجي لويس الثاني ، كما تؤكد على أن كفة المسلمين كانت هي الراجحة في تلك الآونة إذ إن عدد الأسرى الكبير المذكور يعد خير شاهد على ماأحرزوه من انتصارات .

هكذا عرفنا برنارد ببعض الأوضاع السياسية السائدة من خلال رحلته في ذلك الوقت . وفي الصفحات التالية ، نتعرض للموضوع التالي في هذا البحث وهو مايتعلق بالجانب الحضاري من الرحلة ، وبدوره يمكن تقسيمه تسهيلا للدراسة إلى جوانب متعددة ، وبداية تتعرض للجانب الديني بما يتضمنه من زيارات ووصف لمزارات وكنائس وأديرة ، حيث احتوى على إشارات لبعض الجوانب المعمارية لمنشآت دينية . ويلاحظ أن ثقافة برنارد الدينية قد غلبت على ما قام بإيراده في التفاصيل المتعلقة بهذه الجوانب.

بدت اهتمامات برنارد الدينية منذ بدء رحلته مع رفيقيه من أوروبا ، وذلك حين قدم وصفاً لكنيسة القديس ميخائيل ST. MICHAEL بأنها تقع بجوار جبل جرجانوس GARGA-NUS(وهو معروف حالياً باسم جبل القديس أنجلو MOUNT OF ST. ANGLO) ، والجبل يمتد داخل البحر المجاور ، وهو الأدرياتي بارتفاع يصل إلى ١٠٥٥ متراً. وأوضح الحاج

---

(١٨) Oman , C. H, The Dark Ages , London 1908 , p. 409

راجع أيضاً : سعيد عبد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٩٤ ، جـ ١ ، ص٢١٦ - ٢١٩ ؛ ديفز ، (هـ .و) : المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٦.

المسيحى كذلك أن الكنيسة ضمت ديراً به عدد كبير من الرهبان واهتم بذكر اسم رئيس الرهبان ويدعى بنيجناتوس BENIGNATUS ، كما أشار إلى أشجار البلوط التى غطت سفوح الجبل ، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى جنوح المسيحيين على مر العصور إلى تقديس هذا النوع من النبات [١٩] لأسباب عقائدية يشار إليها لاحقاً . وعند العودة ذكر برنارد معلماً دينياً آخراً لقديس يحمل ذات المسمى عرفه بمسمى ميخائيل صاحب المقبرتين ST. MICHAEL OF THE TWO TOMBS ، وأن كنيسة أقيمت إحياء لذكراه فوق الجبل الناتئ فى بحر الشمال ، حيث تحيط به الأمواج العاتية، كذلك أشار إلى أن الموقع يضم ديراً، وذلك بإيراده لاسم رئيس الرهبان فيه ويدعى فينيمونتيوس PHINIMONTIUS، وهو مواطنه وزميلاً له حيث كان من مقاطعة برتانى . وفى إيطاليا أورد عدداً من المزارات والكنائس حيث الكهف ذو السبعة منابع عند جبل أوريس MOUNT OF AUREUS أى جبل الذهب الواقع إلى الجنوب من توسكانيا TUSCIANO ، وكذلك ذكر كنيسة القديس يوحنا المعمدانى فى منطقة لاتران LATERAN شرقى روما التى أحسن بناؤها وكانت تضم قصراً للرجال الذين تولوا مهمة القاصد الرسولى . أما فى الغرب من روما فتقع كنيسة القديس بطرس ST. PETER ، وبالمدينة تم دفن أعداد كبيرة من موتى القديسين المباركين .

وفى الإسكندرية مزارات شدت انتباه صاحب الرحلة : قبر القديس مرقس [٢٠] الذى دعا إلى المسيحية ثم أصبح أسقفاً بها ، وكان الراوى قد سجل اعتقاده فى أن الملاك ميخائيل قام بدفن القديس خلف البوابة الشرقية للمدينة ، الأمر الذى دعا المسيحيين إلى إقامة دير فى هذا المكان سكنه كثير من الرهبان ، كما تم دفنهم به . وسجل برنارد كذلك حقيقة تاريخية معروفة لدى البعض مفادها أن البنادقة المتمرسين فى ركوب البحر تمكنوا من نقل الجثمان إلى بلادهم . ويحدد البعض تاريخ وقوع هذه الحادثة بعام ٨٢٩م./ ٢١٤ هـ. فى غفلة من الحراس [٢١] .

---

(١٩) THEODERICH , DESCRIPTION OF THE HOLY PLACES , TRANS . BY AUBERY STEWART , P.P.T. S., VOL. V , LONDON 1896 , P. 53.

(٢٠) ترى الكنيسة المصرية أن القديس مرقس هو مؤسس كنيسة الإسكندرية وتحرص على أن يلقب خلفاؤه من بعده حتى اليوم بلقب «بابا الاسكندرية وسائر الكرازة المرقسية» نظراً لمكانته ؛ فهو صاحب الأنجيل الثانى واستشهد فى سبيل الدعوة ، انظر : محمد عواد حسين وداوود عبده داوود : الإسكندرية فى العصر البيزنطى ، منشوراً فى تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، الإسكندرية سنة ١٩٦٣م. ، ص ١٠٠ ؛ بطرس عبد الملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدس ، مادة مرقس .

(٢١) Attwalter,D., Dictionary of Saints , Penguin Books , London 1965, pp. 231 - 232,

انظر أيضاً : محمود سعيد عمران : اركولف ورحلته إلى الشرق ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ، ١٩٨٥ ، ص ٣٣٧ .

وتشير الشواهد إلى أن دير القديس مرقس الذى قصده الزائرون هو ذاته ذلك الدير الذى ألحق بالكنيسة البازيليكية التى أقيمت فى العصر البيزنطى وحملت اسمه، وكانت تقع على شاطىء البحر ويمكن رؤيتها من السفن عند دخولها إلى الميناء الشرقية، ولاشك أنها لم تكن تبعد عن الكنيسة المرقسية الحالية ، وعند الفتح العربى كان مايزال بها مدفن من المرمر يحوى جثمان القديس[٢٢] . ثم يذكر صاحب الرحلة ديراً ذكر اسمه بدير الأربعين قديساً وحدد موقعه فيما وراء البوابة الغربية للمدينة ولعله الدير الذى تم إلحاقه بالكنيسة التى إفتتحها القديس اثنا سيوس فى عام ٣٧٠ م ، فحملت اسمه وذلك فى حى بنديون BENDION[٢٣].

وفى مصر أيضاً شاهد برنارد الأهرام الثلاثة . واعتقد أنها مخازن الغلال السبعة التى أنشأها النبى يوسف (ع.م) مؤكداً على أن إقامتها يعد أهم حدث شهدته مصر على مر الزمن . وفى هذا الصدد يتساءل الحاج المسيحي فلكس فابرى الذى زار مصر عام ١٤٨٣ م. ، قائلا : «لماذا يذكر الحجاج فيما مضى أن الأهرامات كانت مستودعاً لغلال يوسف (ع.م) ؟ وإننى لأعتقد أن سبب ذلك هو أن الأهرامات يمكن رؤيتها من بعيد ، وبها مدخل وعر يمكن الدخول منه إلى جوفها كذلك فإنها تقع فوق مرتفع يعلو بابليون» ، أى القاهرة ومشتملاتها القديمة . ويستأنف فلكس حديثه فيقول :«ولو أننى لم أرها عن كثب ، لكنت أعتقدت بسهولة أنها كانت تستخدم كمخزن للغلال ، لكن رؤيتى لها أكدت لى أنها كانت آثاراً خاصة بالوثنيين[٢٤]» (الفراعنة) وبذلك فالواضح أن النزعة الدينية تغلبت على برنارد فيما اعتقده ، كما يتبين أن الحج المسيحى كان يكتنفه قدر كبير من السذاجة ، وشح فى المعلومات وقت الرحلة .

وخلال زيارة الفسطاط أيضاً ، ورد بالرحلة أن بها بطريركاً يتصرف ببركة الله فى شئون الأساقفة والرهبان والمسيحيين فى شتى أرجاء مصر ، وذكرت أن اسمه ميخائيل MICHAEL ولقبه بلقب DOM أى السيد ، وبالرجوع إلى المصادر المهتمة بالتأريخ للكنيسة فى الشرق يتبين أن بطريرك الإسكندرية عادةً ماينتخب بطريكاً على مجمل مصر متخذاً من كنيسة الملاك ميخائيل المعروفة باسم فهادين فى حصن بابليون مقراً له وهى تدين بالمذهب الملكى أو الملكانى ،ولعل المقصود به المذهب الأرثوذكسى إذ من المعروف أن غالبية مسيحى مصر يعتنقون هذا المذهب. . ومن ناحية أخرى أورد سعيد بن بطريق المعاصر ، اسم اثنين من البطاركة : ميخائيل بن بكام وكان مصرياً ، المتوفى ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م. فخلفه شخص آخر يدعى ميخائيل أيضاً كان من أهل روما . وعليه نجد مايشجع الرهبان

---

(٢٢) داوود عبده داوود : فن العمارة فى العصر البيزنطى ، منشور فى تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، الإسكندرية ١٩٦٣م. ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢٣) المرجع السابق : ص ٢١٢ .

(٢٤) Fabri Félix , Le Voyage en Egypte , 1483 A. C. , Trans Jacques Masson , Paris 1975 , Tome II . pp. 448 , 451

الثلاثة على زيارة هذه الكنيسة فربما كان البطريق فيها من بني جلدتهم . أما حينما توجه برنارد إلى مدينة تنيس ، فلم يهتم إلا بذكر ما احتوته من كنائس قديمة وأهلها المسيحيين وما وقع بها من أحداث ترجع إلى عهد النبى موسى (ع.م) وكانت المصادر قد أقرت بوجود كثير من الملكانيين بها [(٢٥)] .

أما حينما وصل الراهب برنارد إلى مدينة الفرما ، فقد اهتم بذكر كنيسة السيدة مريم الكائنة بها ، كما أشار أيضاً إلى حادثة نصيحة الملاك إلى يوسف النجار بالخروج مع السيد المسيح (وهو طفل) وأمه ، فى أثناء الرحيل من مصر . ويتضح من المصادر المعاصرة أن كنيسة الفرما كانت تحتل مكانة مرموقة بين كنائس مصر إذ كان أسقفها له دوره المؤثر فى الأحداث التى تخص المسيحيين [(٢٦)] . أما عندما وصل برنارد إلى مدينة غزة فعرفها بأنها مسقط رأس شمشون وهى تلك الشخصية المعروفة بقوته الجسمانية الهائلة فضلاً عن أنه عمل قاضياً لبنى إسرائيل مدة عشرين سنة [(٢٧)] . وحينما مر الزائر بمدينة الرملة فى طريقه لبيت المقدس لم يذكر سوى دير القديس جورج على أنه يقع بالقرب منها .

أما عن الجانب الدينى في القدس التى تعد الهدف الأساسي للرحلة فقد عنى برنارد كالعادة بالتعريف بأبرز رجال الدين بها ، فذكر أن مسيحيى الأراضى المقدسة اختاروا بطريركاً ليترأس جميع المسيحيين فى المنطقة وكان يدعى ثيودوسيوس Theodosuis وقد أقر سعيد بن بطريق ذلك ذاكراً اسمه برسم ثاودورس وأنه اعتلى المنصب (٨٦٦ – ٨٨٤م / ٢٥٢ – ٢٧١ هـ) . كذلك اهتم مدون الرحلة كثيراً بمقدسات المدينة ومزاراتها الدينية ، وأيضاً ببعض الأماكن المقدسة خارجها ، فبادىء ذى بدء نجده يقول : «تم استقبالنا فى بيت ضيافة الإمبراطور الأمجد تارلشز (أى الإمبراطور شارلمان Charlemagne ٧٦٨ – ٨١٤م.) حيث يتم السماح لكل من يتحدث

---

(٢٥) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩م. ، ص ٦٤ ، ٦٩ ، راجع أيضاً : يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، طرابلس – لبنان ١٩٩٠م ، ص ٢٤ ، ٢٥٣ ، ٢٨١ – ٢٨٣ ؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى (ب –ت) ، جـ ١ ، ص ١٤ ، ٩١ ؛ أما عن تنيس ، فقد وصفها ياقوت الحموى بأنها «جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر مابين الفرما ودمياط والفرمانى شرقيها» ، راجع : معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٩م ، جـ ٢ ، ص ٥١ ، ويرى أحد الباحثين أنها لاتزال موجودة إلى اليوم ، وتقع إلى الجنوب الغربى من بور سعيد بمسافة تسع كيلو مترات ، وبها بقايا من الطوب الأحمر المخلفة من أبنيتها القديمة ، انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القاهرة ١٩٩٤م ، ق١ ، مادة تنيس

(٢٦) الفرما : «مدينة على الساحل من ناحية مصر ، وهى أول مصر من الشام ، وهى «شرقى تنيس قرب القطية بين العريش والفسطاط ، على يمين القاصد لمصر . » ، انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

(٢٧) بطرس عبد الملك وآخرون المرجع السابق ، مادة (شمشون) .

اللسان الرومانى ويبغى التعبد بالوفود إليه ، وبالقرب من بيت الضيافة هذا توجد كنيسة تم تشييدها إحياءً لذكرى السيدة مريم ، وهى تضم مكتبة فخمة يرعاها الإمبراطور المذكور ، كما تحتوى أيضاً على اثني عشرة مسكنا للإقامة وحقول وكرمات وأفنية فى وادى جوزافيات أو قدرون. وتوجد سوق قبالة بيت الضيافة ». وهناك من يعتقد فى أن دار الضيافة تلك كانت قد شيدت بغرض رعاية الحجاج المسيحيين فى حوالى عام ٦٠٠م. بناءً على أوامر البابا جريجورى الكبير Gregory The Great (٥٩٠م - ٦٠٤م) (٢٨) . وبعد قرابة قرنين من الزمان أكدت المصادر على أن الإمبراطور شارلمان قد أحاط الأماكن المقدسة بعنايته ، كما كان يقدم المساعدات إلى فقراء المسيحيين المقيمين هناك ، وفضلاً عن ذلك كان يتابع أعمال الترميم والإصلاح للمنشآت الدينية فى المدينة عن طريق مبعوثيه ، ومن بين أعماله البارزة ترميم دار الضيافة المشار إليها سالفا . كذلك اهتم الإمبراطور بتشييد كنيسة على مقربة من هذه الدار كُرست للقديسة مريم حيث أقيمت الصلوات فيها باللغة اللاتينية بحيث ضمت مكتبة فاخرة ، وذلك على مقربة من كنيسة القبر المقدس (٢٩) . ومنح إدارة كل من دار الضيافة والكنيسة إلى الرهبان البندكتيين . وقد عرفت هذه المنشآت منذ فترة العصور الوسطى بالأبنية اللاتينية تمييزاً لها عن المنشآت البيزنطية الأرثوذكسية (٣٠) . والواضح أنها ظلت مقصورة على الزوار القادمين من الغرب الأوروبى حتى الغزو الصليبى للمنطقة . والملاحظ هنا أن كنيسة مريم أو ماريا لاتينا وبقية الأبنية اللاتينية الأخرى كانت هدفاً أولياً فى زيارة برنارد للقدس حتى أنها سبقت زيارته لكنيسة القيامة مقر الضريح المقدس الذى يأمه كل مسيحى ، بيد أن هذا الأمر يعد طبيعياً ، فلعل أهم مايهتم به الزائر هو إيجاد المسكن المناسب للإقامة فيه مدة الزيارة ، علاوة على أن النزل الذى أقام فيه كان يدار من قبل رهبان كاثوليك من الطائفة البندكتية ، فكانوا بمثابة زملاء للزوار الرهبان الثلاثة ، ومن ثم لقيت هذه الأبنية الاهتمام الأكبر من برنارد فتصدرت كتاباته حينما دون ذكرياته عن القدس .

اتجهت الرحلة فى مرحلتها التالية داخل القدس إلى مجمع الكنائس وهو مايطلق على مجمله كنيسة القيامة الذى حظى باهتمام واضح ، فذكر الزائر الأوروبى أن هناك كنيسة مقامة فى شرقى المدينة فوق جبل كلفارى Calevary حيث المكان الذى زعم أنه عُثر فيه على الصليب الحقيقى ، وتدعى كنيسة قسطنطين البازيليكية ، والمقصود به الإمبراطور الرومانى قسطنطين

---

(٢٨) King, E. J., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931 , p. 5.

ولمعرفة المزيد عن بطريركاية القدس زمن الرحلة . راجع : سعيد بن بطريق : المصدر السابق ، ص ٦٦ -٦٧ .

(٢٩) Einhard , the Life of Charlemagne , with a Fareward , by Sidney Painter , Trans . From Latin by Samuel Epes Turner , Michigan 1960 , pp. 42, 44 , 55 - 56.

(٣٠) De laville la Roulx , J., Les Hospitaliers en Terre sainte et a Chypre (1100 - 1310) , Paris 1904 , pp. 5 - 7.

الكبير Constantine TheGreat ٣٠٦ - ٣٣٧م. ، الذى امر بتشييدها ؛ كما أشار الرحالة إلى ثلاث كنائس أخري مجاورة : الضريح المقدس Holy Spulcher وكنيستين فى الجنوب والغرب دون أن يحدد اسميهما ، لعلهما كينستا السيدة مريم وجيمس الحوارى James The Apostle نظراً لقربهما . وتمدنا الرحلة بعد ذلك ببعض التفاصيل المعمارية عن هذه الأبنية يشار إليها فى حينه . ثم يختتم برنارد وصفه لموقع كنيسة القيامة ذاكراً عنها «يقال أنها صرة العالم» . وورد فى المصادر الإسلامية أيضاً «وصرة الأرض بيت المقدس(٣١)» ، وعليه فهناك اعتقاد مشترك بين المسلمين والكاثوليك فى أن المدينة المقدسة تحتل فعلياً هذا الموقع . ولا غرو فهذا يعكس اتجاه معتنقى الأديان السماوية إلى تشريف هذه المدينة وإحاطتها بالقدسية .

وإضافةً إلى ماتم التعرف عليه عن كنيسة القيامة من خلال الرحلة ، فقد أشار صاحبها إلى كنائس أخرى تنتمى إلى مدينة القدس أيضاً ، إذ أورد أنه فى الجنوب وفوق جبل صهوين تقع كنيسة القديس سمعان St. Simeonحيث غسل فيها السيد المسيح أقدام حوارييه كما يتدلى التاج الشوكى الذى قيل أنه وضع على رأس السيد المسيح قبل الصلب ، وقد ذكر فى المدونات السابقة أن ذات المكان شهد وفاة السيدة مريم وبمراجعة هذه المعلومات اتضح أن الصواب قد جانب برنارد فى إطلاق مسمى القديس سمعان على مجمل أبنية الكنائس الصغرى فوق جبل صهيون إذ إن المصادر المتاحة لم تشر البتة إلى هذا القديس حين ذكرها للكنائس الصغرى المكونة للكنيسة التى فوق الجبل وهى ماعرفت فى هذه المصادر بكنيسة جبل صهيون Church of Mt. Sion ، أما عن الموقع ، فقد أورده برنارد صحيحاً ، مخالفاً لما ورد فى رحلة ويليبا لد Willibald السابقة زمنيا عليه ومتفقاً فى ذلك مع معظم المصادر اللاحقة ، بيد أن هذه المصادر كانت أكثر دقة فى تحديد الموقع بأنه فى خارج المدينة ، وإلى الجنوب من بوابتها الجنوبية ، وكذلك فى الحديث عن ارتباطها بذكرى وفاة السيدة مريم(٣٢) . وهناك من المصادر مايؤكد أن كنيسة صهيون ظلت باقية حتى هدمت فى عام ١٠٣٣ م./ ٤٢٥ هـ. (٣٣) وهذا فيه مايؤكد على أن كنيسة صهيون كانت لا تزال

---

(٣١) ابن الفقيه الهمذانى : كتاب البلدان ، تحقيق : يوسف الهادى ، بيروت ، ص ١٤٥ ؛ راجع أيضاً بمزيد من التفاصيل : ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، تحقيق دوروتيا كرافولسكى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٦م./ ١٤٠٧ هـ ، ص ١٢٤ ، ١٦٨ .

(٣٢) Willibald , The Hodoeporicon of Saint Willibald , (Circa 754 A. D.) , Trans . by Rev. canon Brownlow , in B. B. T. S., vol IV , London 1891 , p. 46 . Daniel The Russian , The Pilgrimage of the Russian abbot Daniel in the Holy Land , Trans. by Wilson C. W in Palestine Pilgrims , Text Society , vol IV , London 1891, p. 38. , William of Tyre , A History of deeds done beyond the sea , Trans. by Emily Atwaler Babcock and Krey , New York 1943 , vol I , p. 61,

الإدريسى : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق ، نشر : راشن موللر ، ليدن ١٨٩١م. ، ص ١٢٦.

(٣٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى : المصدر السابق ، ص ٤٣٩ .

قائمة وقت الزيارة . أما عن تدلى التاج الشوكى فى الكنيسة ، فيبدو أنه كان أمراً مرحلياً بحيث لم يره الزوار اللاحقون ومن ثم لم نجد له ذكراً فى كتاباتهم .

تعرضت الرحلة أيضاً إلى كنائس أخرى فى إطار مدينة القدس بالإشارة فقط دون تقديم تفاصيل ذات أهمية إذ لم يذكر برنارد عن كنيسة القديس ستيفن سوى أنها تقع إلى الشرق من كنيسة جبل صهيون ، وفى الواقع رأى الزائر الصليبى ساولف حوالى ١١٠٣ م. أنقاض هذه الكنيسة ، وحدد موقعها فى خارج أسوار القدس جهة الشمال (٣٤) ، كذلك اكتفى برنارد بالإشارة إلى كنيسة القديس بطرس ، وحدد موقعها بأنها تقع إلى الشرق اكثر من الكنيسة السابقة وهى فى الواقع تطابق موقع كنيسة التى تحمل ذكرى سجن القديس بطرس ، ثم ما لبث أن اجتاز الرفقاء الثلاثة بوابة صهيون التى بطبيعة الحال تؤدى إلى داخل المدينة ، حيث كانت المرحلة التالية من زيارتهم قد استهدفت المبنى الذى كان المسيحيون واليهود فى تلك الآونة يعتقدون فى أنه معبد سليمان Solomun's Temple أو قصر سليمان Solomun's Palace وقد أدرك برنارد أن المكان يضم معبداً للمسلمين الذى هو فى الواقع الحرم القدسى الشريف ، وعلى كل ، فلم يحظ المكان بأى اهتمام من قبله . ثم أشار كذلك إلى بوابة حديدية حدد موقعها فى جنوب المعبد ذكر ان ملاك الرب أخرج القديس بطرس من خلالها من السجن ، وبمضاهاة الموقع بما ورد بالأطالس المتخصصة ، نجده يتطابق مع موقع بوابة الدباغين Tanner's Gate مضيفاً أنها كانت مغلقة وقت زيارته .

والمجموعة التالية من المزارات والكنائس التى شملتها الرحلة تقع فوق جبل الزيتون Mount of Olives حيث حدد برنارد موقع كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا ، إلا أن هذا الأمر غير ثابت . كما أشار إلى كنيسة أخرى فوق الجبل حيث المكان الذى شهد صعود السيد المسيح إلى السماء ، ويوجد به كنيسة دائرية غير مسقوفة ويقع مذبح تحت السماء المكشوفة فى وسط الكنيسة أى فى نفس مكان الصعود. وعند هذا المذبح تقام الاحتفالات بالقداس ولانجد مجالاً للشك فى أن هذه الكنيسة هى مجمع كنيستى الإلونا والصعود اللتان تعدان سوياً واحدة من أهم ثلاث كنائس قام الإمبراطور قسطنطين الكبير بتشييدها فى القرن الرابع الميلادى ، علماً بأن كلمة إلونا تعنى باللهجة المحلية جبل الزيتون . ويجدر بالذكر أن الكنيسة التى رآها برنارد كان قد تم تجديدها نظراً لتهدم الأبنية البيزنطية القديمة (٣٥) وعند النزول من الجبل تجاه الجنوب يوجد على

(٣٤) Saewulf , The Pilgrimage of Saewulf , Trans. from Original Latin , by Rev. Canon Brownlow, in P. P. T. S. , vol IV , London 1891 , p. 21

(٣٥) Crowfoot, J. W, Early Churches in Palestine . London 1941 , pp. 29 - 31 , CF. Also , Boase , T.S. R. , Ecclesiastical art in the Crusader states in Palestine and syria , Architecture and sculpture , in Setton K. L. , vol IV , Weskenson 1977 , p. 71.

ويضيف «كروفوت» أن المنشآت المقامة فوق جبل الزيتون تعرضت للتدمير على يد الفرس عام ٦١٤م. ثم أقامها الرومان قبل الفتح الإسلامى للقدس ولكن ما لبثت أن تهدمت فأقيمت مرة أخرى بعد ذلك ، وعليه يتضح للباحث أن تشييدها الأخير كان فى وقت ليس بطويل قبيل زيارة برنارد .

بعد ميل واحد موضع بيثانى Beithany وبه دير يضم كنيسة بها ضريح القديس ليعازر St. Lazarus (وهو الرجل الذى قام السيد المسيح باحيائه بإذن الله بعد موته) . كما يوجد بجواره حوض ماء ، كان القديس قد اغتسل فيه . أما إلى الغرب من الجبل فقد أشار أيضاً برنارد إلى مزار عبارة عن كتلة من الرخام كان السيد المسيح قد استخدمها ليستوى على جحشه.

أما إذا ما انتقلنا إلى ما أوردته الرحلة عن المزارات والمنشآت الدينية فيما اعتبرته خارج القدس ، فقد أشارت إلى ثلاث مجموعات منها : الأولى ، وهى الواقعة فى وادى وادى جوزافات وتضم عدة مزارات وكنائس حيث موضع بستان الجثمانية ، وهو المكان الذى شهد تعبد السيد المسيح وإلقاء القبض عليه نتيجة حادثة الخيانة . ومما يذكر فى هذا الموضع أن الرومان قد شيدوا فيه كنيسة لكنها تعرضت للتخريب على يد الفرس فى عام ٦١٤ م. [٣٦] . ثم أشار برنارد إلى كنيسة وصفها بأنها ضخمة البناء فى فى موضع مسقط رأس السيدة مريم ، ولعله يقصد بذلك كنيسة القديسة حنا St. Anna والدة السيدة العذراء . أما الكنيسة التالية ، فهى كنيسة السيدة مريم التى وصفت بأنها «دائرية ويوجد بها ضريحها ..... وهو غير مسقوف» وكانت إشارة برنارد إلى الضريح قد جعلت الباحث يرجع أن المبنى الذى يعلوها هو كنيسة سيدتنا مريم Notre Dame ، أما فى الوادى نفسه فكانت تقع بركة سلوان[٣٧] – سالوم Siloam التى كانت محطاً لأنظار الزوار .

وعندما توجه برنارد إلى المنطقة الجنوبية من فلسطين ، خارجاً من القدس ذكر مجموعة ثانية من الأبنية الدينية، حيث حظيت كنيسة المهد The Nativity فى بيت لحم [٣٨] ببعض الوصف من الرحالة الأوربى حيث أشار إلى ضخامتها ، وإلى سرداب فى وسطها تحت الحجرة ، والطريق

---

(٣٦) بطرس عبد الملك وآخرون : المرجع السابق ، مادة جيثمانى .

(٣٧) سلوان : عين تقع فى وادى قدرون عند سفح الجبل ، مباركة عند المسيحيين لارتباطها بمعجزة السيد المسيح بأن رد بصر الأعمى فيها وأيضاً عند المسلمين لوقوعها فى أرض القدس المباركة ، وقد أضاف ابن فضل الله العمرى وصفاً محدداً لها ومما أورده عنها «ماؤها قليل ليس بالكثير» ، راجع :

Daniel the Russian , Op. Cit., p. 38,

ابن فضل الله العمرى : لمصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣٨) تم تشييد كنيسة المهد فى عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير ، فكانت ثانى أهم البازيليكيات التى بنيت حين زيارة أمه القديسة هيلينا للأراضى المقدسة . وظلت الكنيسة محطاً للزوار والحجاج الوافدين إلى القدس ولمعرفة المزيد عن التاريخ المبكر لها ، راجع :

Crowfoot , J. W., Op. Cit., pp. 22 - 30

إلى داخله يقع إلى الجنوب بينما الطريق إلى الخارج تقع إلى الشرق . وقد أقيم مذبح في المكان الذي أقام فيه السيد المسيح ، كان الناس يفدون إليه لحضور القداس والاحتفال . ثم أشار صاحب الرحلة إلى كنيسة أطلق عليها كنيسة الشهداء ، وحدد موقعها في الجنوب مباشرة من كنيسة المهد ، وأخيراً أشار إلى دير يقع في الجنوب للكهنة المقدسين على بعد ميل واحد من بيت لحم ويفهم من الإشارة أن المقصود بدير الكهنة هو أحد الأديرة الكائنة بالقرب من مدينة الخليل Hébron القائم عند شجرة البلوط المعروفة بشجرة ممرى Mambre المباركة وبئر إبراهيم (ع.م) وذلك في قرية رامة الخليل ، الواقعة بالقرب من الطريق الواصل بين مدينتي الخليل والقدس ، وعلى بعد حوالي ميلين إلى الشمال من الخليل . وكانت الشجرة والمنطقة المحيطة موضع الدير قد اكتسبت قدسيتها عند النصارى نظراً لاعتقادهم في أن إبراهيم (ع.م) استظل بظلها ، حيث رأى الملائكة الثلاثة - الذين أشار إليهم النص بالكهنة المقدسين - هابطين من الطريق ليكونوا في ضيافته ، ولذا حرصوا على زراعة أشجار البلوط إحياءً للذكرى [٣٩] ، ومما يؤكد ذلك أن إحدى الدراسات المتخصصة تذكر أن رامة الخليل كانت تضم ديراً قبل الغزو الصليبي للمدينة عام ١٠٩٩م. [٤٠] .

اشتملت الرحلة أيضاً على ذكر مجموعة أخرى تضم مزارات تقع إلى الشرق من القدس وإلى غربها ، ففي الشرق تم الإشارة إلى دير القديس يوحنا المعمدان الذي يطل على مياه نهر الأردن إضافةً إلى العديد من الأديرة الأخرى كانت قد شيدت في المنطقة . أما في الغرب ، فتوجد كنيسة القديسة ماميلا St. Mamella التي أقيمت في موضع يحتوي على عددمن جثث الشهداء ، الذين ، قام المسلمون بذبحهم على حد زعم برنارد فقامت القديسة ماميلا ببذل جهد كبير لدفنهم هناك . وبينما كانت هذه البقعة قد مست قلوب الزائرين المسيحيين ، نجدها قد حظيت أيضاً بمكانة رفيعة في نظر الكثير من أهالي القدس المسلمين وماجاورها إذ حرص بعضهم على دفن موتاهم فيها لاعتقادهم في أنها أرض مباركة [٤١] وجدير بالذكر أنه لم يتم العثور في المصادر المتاحه على ما يبرر أو يؤكد ادعاءات برنارد في هذا الصدد .

كذلك أبدى الحاج الأوروبي اهتماماً بالاحتفالات الدينية فحينما وصل الأراضي المقدسة ، نقل لنا صوراً عما شاهده من احتفالات دينية : ففي بيت المقدس وعند الضريح المقدس ، ذكر أن

---

(٣٩) Saewulf , Op. Cit., p. 24 , Daniel The Russian , Op. Cit., p. 45 , John of Wurzburg, Description of The Holy Land , Trans . by Aubrey Stewart , P.P. T. S, vol IV , London 1896 , p. 58 , Theoderich , Op. Cit, p. 53 ,

علي الهروي : الاشارات إلى معرفة الزيارات ، نشر سورد بل ، دمشق ١٩٥٣ م. ، ص ٥٩ .

(٤٠) Vigouroux , F., Mambre , en Dictionnaire de la Bible , Tome III, Paris 1903 , Cols . 633 - 634.

(٤١) كثيرا ماورد في كتب التراجم خاصة عند التعرض لوفاة بعض الشخصيات المقدسية أي المنتمية إلى بيت المقدس أنهم دفنوا في ماميلا ، راجع على سبيل المثال : العماد بن أبي الفلاح : شذرات الذهب في تاريخ من ذهب ، ٨ ج ، بيروت ١٩٧٩م. ، أماكن متفرقة .

الزوار كانوا يحتفلون فى يوم السبت المقدس أى عشية عيد الفصح إذ يبدأ القداس مبكراً فى الكنيسة ، وبعد الانتهاء منه يتم ترتيل الأناشيد ، إلى أن يأتى ملاك يضرم النار فى القناديل المتدلية ويدفع البطريرك بقبس من الضوء الناتج إلى الأساقفة ثم باقى الناس ، ويعتقد برنارد أن هذا الضوء يمكنه أن يضيء المكان الذى يقف فيه كل منهم على زعم أنها كانت ناراً مقدسة كذلك أشار إلى القداديس التى تتلى فى كنيستى الصعود The Ascension والمهد وكذلك فى دير الكهنة المقدسين الواقع فى رامة الخليل . وفى الغرب الأوروبى ، تعرض برنارد إلى الاحتفالات التى تقام بمناسبة عيد القديس ميخائيل صاحب المقبرتين ، حيث كنيسته الواقعة على الجبل المطل على بحر الشمال مشيراً إلى أن الطبيعة تصفو وتهدأ أمواج البحر لاستقبال الزوار القادمين للاشتراك فى الاحتفالات والصلوات ، زاعماً أن ذلك لايحدث إلا فى ذلك اليوم .

وبعد التعرف على المعالم الدينية والاحتفالات الخاصة بها فى رحلة برنارد ، ففيما يلى يتم التعرض إلى كل من العمارة الدينية والحربية فيها ، ومن بين ثنايا المادة الخاصة بالمزارات والكنائس ، يمكن استخلاص بعض المعلومات التى قد تشكل إضافة فى إيجاد تصور ما للعمارة الدينية فى المواضع والبلاد التى شملتها الرحلة ؛ فقد وصفت كنيسة القديس ميخائيل عند جبل جرجانوس بأن مدخلها يقع جهة الشمال ، أما فى الشرق فيوجد تمثال لهذا الملاك فى حين يقع المذبح الرئيسى جهة الجنوب حيث تقدم فوقه الأضاحى فى حين توضع الهبات فى آنية خاصة معلقة قبل الوصول إلى المذبح وفى المكان الذى يضم الآنية يوجد عدد من المذابح الأخرى ، وكان المبنى يسع ستين رجلاً ، ولكن هذا العدد الضئيل يشير إلى تواضعه . أما كنيسة القديس بطرس التى دفن فيها ، فقد وصفت بأنها تحتوى على زخارف متعددة ولاتوجد كنيسة أخرى فى نفس حجمها فى العالم أجمع ، وهذا يوافق الواقع كما هو معروف .

وفى مصر ، أشارت الرحلة إلى أبنية الاسكندرية الدينية ؛ فذكرت دير القديس مرقس ودير الأربعين قديساً ، إضافة إلى كنيسة القديس اثناسيوس التى كانت لاتزال باقية ، وفى طريقه إلى القدس أشار الرحالة إلى كنائس تنيس القديمة وكنيسة السيدة مريم فى الفرما ودير القديس جورج St. George فى الرملة دون الدخول فى أى تفاصيل تمكن من التعرف على عمارتها .

أما عن منشآت القدس الدينية ، فقد لقيت مزيداً من الاهتمام من قبل برنارد إذ قدم معلومات لها أهميتها عن الأبنية اللاتينية والمكتبة والمساكن الملحقة ، وكذلك كنيسة القيامة ، فذكر أنها بازيليكية ترتبط باسم الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير وأشار إلى الكنائس الثلاث الأخرى التى تكون مجمع كنيسة القيامة الكبرى وكانت كنيسة الضريح المقدس إحداها فذكر أن بها تسعة أعمدة منها أربعة فى الأمام وكانت لاتفصل بين هذه الكنائس الأربعة سوى الجدران المشتركة ثم أضاف أنه توجد مساحة غير مسقوفة توسطت هذه الكنائس تغطى أرضيتها أنفس الأحجار ، وطليت الجدران بالذهب فى حين تدلت أربع سلاسل من تلك الكنائس ؛ والثابت تاريخياً أن كنيسة القيامة فى ذلك الوقت كانت تحتفظ بملامحها البيزنطية القديمة التى يرجع معظمها إلى عهد الامبراطور قسطنطين الكبير ، فبالرغم من تعرضها للتخريب على يد الفرس

حين غزوا القدس فى عام ٦١٤م إلا أن المهتمين بإعادة البناء التزموا بالنسق المعمارى للكنيسة القديمة فظلت تحتفظ به [٤٢] حتى زيارة برنارد لها فوصفها بهذا الشكل المختصر وبرر عدم تقديم التفاصيل بأن المؤرخ الكنسى الإنجليزى بيده Beda قد أورد ذلك تفصيلياً فى كتابه [٤٣]، ومما يؤكد وصف برنارد بأن الأبنية طليت بالذهب ما ذكر على لسان الرحالة المسلم ناصر خسرو[٤٤] الذى شاهد الكنيسة من بعده بحوالى مائة وثمانين عامًا .

أما فى خارج القدس فقد كانت المعلومات شحيحة عن العمران الكنسى، ففي حين قدم الرحالة الأوربى نبذة عن كنائس : صهيون والقديسة حنة والسيدة مريم والصعود والمهد نستشف من خلالها حجم الكنيسة أو شكلها العام ، نجد أنه لم يتطرق إلا بذكر الاسم والموقع لبعض الأبنية والأماكن الدينية الأخرى كما هو الحال بالنسبة للكنائس : القديس ستيفن والقديس بطرس والجثمانية، والشهداء والقديسة ماميلا ، إضافة إلى دير القديس ليعازر فى بثيانى والدير الواقع من رامة الخليل ودير القديس يوحنا المعمدان .

وفيما يختص بالعمارة الحربية ، فيلاحظ أن برنارد الحكيم لم يهتم كثيراً بهذا الجانب إذ إنه لم يتعرض إليه إلا نادراً ، وأبرز ما ذكر فى ذلك الصدد ماأورده باقتضاب عن مناعة مدينة بارى الساحلية وتحصيناتها ، إذ ذكر إنها محصنة بسورين سميكين من الناحية الجنوبية، أما من الناحية الشمالية فكانت محصنة بشكل طبيعى حيث يحدها البحر، وفضلاً عن ذلك فهى مرتفعة عن البحر ، الأمر الذى يجعلها تشرف فى يسر على الساحل المجاور ، ولعل إشارة برنارد الحكيم تلك تجعلنا نفسر ما أورده بعض المؤرخين عن قدرة المدينة فى عام ٨٥٢م على مواجهة حصار الامبراطور

---

(٤٢) Virgilio, C., Corbo O.F.M., il Santo Sepeler di Gerusalemme, Aspetti as thealagici dalle arigini al periado craciate , Franciscan Printing Pren Je-rusalem , III vols., 1981 , vol I , pp. 223 - 228

(٤٣) Bede's Ecclesiastical History of the English People , ed. Bertram Colgrave and R. A. B. Mynors (Oxford Clarendon Press, 1969)

ولد (بيدة) بالقرب من دير ويرماوث Wear mouth فى شمال شرق إنجلترا ، ووضع تحت رعاية الرهبان منذ السابعة من عمره ، ثم انتقل إلى دير جارو Jarrow وفيه قضى معظم حياته ، حيث نشأ وظهر طالباً للعلم وراهبًا ومعلماً وكاتباً فقد عاش ومات قديساً بعد أن أصبح المؤرخ الأول لأوروبا فى العصور الوسطى ، ومعلمها فى تعيين التواريخ الدقيقة ، للأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمنى . واشتهر بتأريخه للكنيسة ولسير القديسين ، وعرف بين أقرانه باسم «بيدة المبجل The venerable Bede وتوفى فى عام ٧٣٥م ، راجع :

Ibid . Preface , pp. 3 - 9

(٤٤) ناصرو خسرو : سفر نامة ، تعريب وتحقيق يحيى الخشاب ، ط ١ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ / ١٩٤٥ م ، ص ٣٦ - ٣٧ .

الكارولنجي لويس الثاني (٤٥) . ومن ثم فهذه الأحداث تتيح الفرصة فى الاعتقاد بأن الحاكم المسلم فى بارى أسرع فى تدعيم دفاعاته وتقوية السورين المذكورين حتى لفتت تحصيناته أنظار برنارد فذكرها وذلك ضمن الاستعدادات الواجب اتخاذها فى مثل تلك الظروف الحربية ، حيث كانت المنطقة تعانى من الصراعات السياسية بين عدة قوى للسيادة عليها .

وفى إطار الحديث عن العمارة الحربية ، فقد وردت إشارات فى الرحلة أيضاً عن مدن ساحلية أخرى حيث مدينة الإسكندرية بيد أن مدون الرحلة اكتفى بذكر بابين فقط من أبوابها القديمة ، وهما الباب الشرقى والباب الغربى ، برغم أن أحمد بن طولون كان قد أبدى اهتماماً واضحاً بتجديد أسوار الإسكندرية وبواباتها ، إلا أن هذا الاهتمام جاء فى مرحلة تالية بعد أحداث الرحلة التى تمت فى السنوات الأولى من حكمه ، ومن ثم كانت المدينة لاتزال تحتفظ حينها بتخطيطها فى العصرين اليونانى والرومانى بشكل أساسى ؛ وعليه يعتقد الباحث أن تكون هاتين البوابتين هما بوابة رشيد الواقعة عند بوابة الطريق العرضى الرئيسى الذى يعرف باسم المحجة العظمى ، والذى يمتد إلى البوابة الثانية غرباً المعروفة باسم القرافة ، ومما يؤكد أن البوابة الشرقية - التى ذكرها برنارد - هى ذاتها بوابة رشيد تطابق موقع كنيسة القديس مرقس الذى أورد برنارد موقعها عند البوابة الشرقية مع ما أثبته الباحثون الحديثون فيما يختص بموقع بوابة رشيد (٤٦) .

وفيما يختص بالجانب الاقتصادى فى رحلة برنارد الحكيم فإن النشاط التجارى يعد أهم ما انطوت عليه فى هذا المجال ؛ فبداية نبهنا إلى المكانة الكبيرة التى احتلها ميناء تارنتيوم الإسلامى بين الموانىء الايطالية فيما يتعلق بحركة النقل البحرى والعلاقات التجارية بين أوروبا ومنطقة الشرق الأدني الإسلامى زمن الرحلة . وفضلاً عن ذلك أكد على أهمية ميناء الإسكندرية التى كانت منتهى رحلة الذهاب البحرية ، ولم يكن ذلك من فراغ ، فمن المعروف أن الإسكندرية فى ذلك العصر كانت غالباً ماتمثل حلقة الوصل بين تجارة الأسواق الشرقية حيث الصين والهند والبحر الأحمر بموانىء أوروبا فى الغرب (٤٧) . لكن الحاج الأوروبى اقتصر فى

---

(٤٥) Oman , C. H.,Op.Cit, p. 452 , Bury, J. B, Op. Cit ., p. 315 ,
راجع أيضاً : أرشيبالد . ر. لويس : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٤٦) تقع بوابة رشيد فى طريق الحرية قرب إلقفانه بشارع الشهيد صلاح مصطفى (السلطان حسين سابقاً) من اليمين وشارع بلجيكا من اليسار . وكانت هذه البوابة هى البوابة الرئيسية التى يدخل منها القادم من الفسطاط ، راجع : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية ١٩٨٢م. ، ص ٤٤٤ - ٤٤٨ .

(٤٧) اشتهرت الإسكندرية منذ العصر البطلمى بصفتها قاعدة رئيسية للتجارة البحرية ، ففاقت موانىء مصر الأخرى فى هذا المجال ، إذ كفلت لها ترعة شيديا الاتصال المباشر بطريق القوافل إلى مصر العليا مروراً بالنيل ، كما كانت تستقبل ماتحتاج إليه مصر من العالم الخارجى وتصدر الفائض من ثرواتها ، وكذلك مايفد إليها من إفريقيا والشرق ، راجع : لطفى عبد الوهاب : عصر البطالمة ، الإسكندرية ==

هذا الموضع على التحدث عن تجارة الرقيق ذاكراً أن مسلمي جنوب إيطاليا قاموا بنقل مجموعات من اللمباردين ، كانوا قد وقعوا أسرى خلال الحروب مع بنفنتيو إلى تارينتيوم بلغت أعدادهم تسعة آلاف أسير قسمت إلى ثلاث مجموعات ، كل مجموعة تضم ثلاث آلاف نقلت كل منها إلى موانىء : تونس وطرابلس (الغرب) والإسكندرية ، مكملاً لما أورده الرحالة المسلم المعاصر ابن خرداذبة فى هذا الصدد الذى ذكر أن التجار اليهود كانوا يجلبون من الغرب حيث بلاد الفرنجة ، الخدم والجوارى والغلمان وكثيراً من السلع الأخرى إلى مصر ، ومنها تنتقل إلى مايليها من بلاد [48] . وعليه يتضح أن الأسري الذين شاهدهم برنارد ماهم إلا رقيق من النوع الأبيض ، أما تقسيمهم إلى مجموعات ثلاث على هذا النحو فكان بغرض الحصول على أعلى قيمة تدفع مقابل هذه الأعداد بتوزيعها على عدة أسواق .

وفيما يتعلق بالناحية الاقتصادية أيضاً أمدتنا رحلة برنارد بمعلومات مهمة عن الطرق التجارية المعروفة فى ذلك الوقت ، إذ أشار إلى الطريق البرى بين جبل جرجانوس فى الشمال وبارى وقدره بمائة وخمسين ميلاً . كما ذكر أنه انتقل من بارى إلى تارينتيوم عبر طريق قدر طوله بتسعين ميلاً ولم يحدد وسيلة الانتقال بين هذين الميناءين البحريين ، إلا إنه من الواضح أنه انتقل بينهما عن طريق البر وليس البحر ، إذ إن المسافة المذكورة بينهما تقارب الواقع براً ، فى حين أن الطريق البحرى يبلغ أضعاف هذه المسافة . أما الطرق البحرية التى أشار إليها فتبدأ من تارينتيوم حيث تنتهى إلى : افريقيا وتونس وطرابلس والإسكندرية ، وقد استغرقت رحلته عبر الطريق الأخير مدة ثلاثين يوماً . وفضلاً عن ذلك استخدم صاحب الرحلة النيل فى انتقاله من الإسكندرية إلى الفسطاط صعوداً ومنها إلى دمياط هبوطاً ، فامتدت رحلة الذهاب إلى ستة أيام، فى حين استغرقت رحلة العودة إلى دمياط مايزيد على ثلاثة أيام .

وإضافة إلى هذه الطرق البحرية والنهرية ، تعرض برنارد إلى الطريق البرى الذى يربط مصر ببلاد الشام ، الذى سلكه هو ورفيقاه إلى فلسطين ، فبعد مغادرته تنيس ، وصل إلى مدينة الفرما ومنها إلى العريش وغزة والرملة وعمواس ثم إلى مدينة بيت المقدس ، ويتبين من ذلك أنه سلك طريقاً داخلياً يخترق الأودية التى لاتغمرها مياه المطر إلا شتاءً، وكان يقع بين طريق يافا - القدس إلى الشمال منه ، والطريق الواصل بين الرملة فالخليل فبيت لحم فالقدس ، الواقع إلى الجنوب . أما عن أولى محطاته ، فهى الفرما حيث يذكر عنها أنها ضمت مركزاً لتجمع الجمال التى يؤجرها الأهالى للغرباء لحمل أمتعتهم تحسباً لرحلة تبلغ ستة أيام عبر الصحراء ، وهى

= = ، ص ٣٠٢. والثابت أن المدينة حافظت على وضعها المتميز طيلة القرون ، وبرغم اضمحلالها نسبياً قبل حلول القرن الرابع عشر الميلادى/الثامن الهجرى إلا أن ابن فضل الله العمرى ، وصفها فى هذا الوقت قائلاً : «والإسكندرية هى فرضة الغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم وإليها ترد شوانيها وتجلب بضائعها ومنها تخرج أغراضها» ، راجع : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٤٨) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩م ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

المدة التى تستغرقها الرحلة من الفرما إلى العريش ، وقد نوه المؤرخ المسلم المتأخر نسبياً المقريزى غير مرة إلى هذا الطريق باسم طريق الرمل الممتد قرب الساحل ابتداءً من الفرما وصولاً إلى العريش فغزة ومنها إلى سائر الشام ، فى حين أكد الرحالة ابن خرداذبة على أهمية مدينة الفرما كميناء بحرى وكثغر حربى يسمح بدخول وخروج السفن كما يذكر المقدسى البشارى أنها : «عامرة ، آهلة ، عليها حصن ولها أسواق حسنة » (٤٩) . كل هذا جعل من الفرما محطة تجارية هامـــة انطلقــت منها القوافل التى تعبــر شبه جزيرة سيناء جهــة الشمــال الموازى لساحل البحر المتوسط .

ومن معالم طريق الرمل ، يسجل برنارد وجود نزلين أو دارين للضيافة يقعان فى وسط الطريق وذكر اسميهما : الباتشارا Albachara والبارا Albara ، وأنه كان بجوارهما بائعون يمدون المسافرين بما يلزمهم من حاجيات وكانوا من المسيحيين والمسلمين إلا أنه ينبغى التعرف على موقع كل من هذين النزلين ، فلعل موقع الباتشارا يطابق المنطقة الأثرية بتاشوينوس الواقعة على الطريق الساحلى جنوب شرقى بحيرة البردويل ، فى حين نجد مسمى البارا قريباً نسبياً من رأس بارون الواقع على الشريط اليابس بين بحيرة البردويل والبحر المتوسط (٥٠) ، وعليه يتبين أن الدولة العباسية حرصت على تنشيط حركة التجارة على طريق الرمل الحيوى ، بغية ربط أوصالها المترامية بأن أحاطت هذين النزلين برعايتها خدمة للمسافرين ، وثمة ظاهرة أشارت الرحلة إليها تتمثل فى أن الأقباط كانوا لايزالوا يلعبون دوراً ما فى مجال التجارة داخل المجتمع المصرى الإسلامى .

أما عن الأسواق ، فيذكر برنارد الحكيم أن أحدها كان يقع أمام بيت الضيافة الذى نزل فيه فى بيت المقدس وأن المشرف على السوق كان يتلقى قطعتين ذهبيتين (أى دينارين) كل عام من كل شخص يقيم به ؛ وتوضيحا للأمر فبمراجعة المراجع يتبين أن من يقوم بمهمة الإشراف على الأسواق فى الدولة الإسلامية كان يعتلى منصب المحتسب وهو منصب قضائى ، شهد تطوراً فيما أوكل إليه من مهام ، فبعد أن كان منصباً دينياً أخلاقياً غدا يقوم بخدمات اجتماعية اقتصادية ، ثم مالبث أن تطور بتطور الحياة فى المدن فأصبح اقتصادياً بالدرجة الأولى ، يهتم بالإشراف

---

(٤٩) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٣٢٤ هـ . ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ؛ ابن خرداذبة: المصدر السابق ، ص ١٥٣ ؛ المقدسى البشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٩١ م ، ص ١٩٥ .

(٥٠) أحمد فخرى : تاريخ شبه جزيرة سيناء منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام ، نشرت فى موسوعة سيناء ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٦٧ - ١٢٣ ؛ وجدير بالذكر الاشارة إلى أن هناك اعتقاداً أن للإسمين مدلول لغوى فإسم الباتشارا يعنى البكرة ، أما البارا فتعنى البر ، وربما يعنيان : البحر والبرّ ، ويرى چون ولكنسون أن المرقمين قد يكوناديرى : : كاسيوس Casius وأوستراكين Ostrakine، راجع :

Wright , T. , Op. Cit , p. 25 , no. 2. Tobler, T. Dictionnaire de la Terre - Sainte, Paris 1969, p. 405, Wilkinson, J., Op. Cit, p. 149.

على الأسواق وصحة الموازين والمكاييل ومنع الغش ، ويستند فى عمله إلى مجموعة من العرفاء بصفتهم معاونين له . وفى كثير من الأحيان كان يطلق على عامل الحسبة اسم والى السوق أو صاحب السوق[٥١] . وهكذا نجد برنارد قد مس مرة أخرى جانبا من النظم الإدارية التى سادت المجتمع الإسلامى فى ظل الخلافة العباسية ذات السيادة ، حينما فطن إلى مايجتبيه المحتسب من ضريبة على أصحاب المحال التجارية فى السوق الإسلامي .

أما عن وسائل النقل المستخدمة زمن الرحلة ، فنجد بها إشارات إليها ؛ ومن ذلك السفن الست التى بلغت حمولة كل منها ألفاً وخمسمائة راكب واستقل أفرادها واحدة منها ، تولى قيادتها قبطان على رأس ستين ملاحاً قام بالإشراف على كل شىء حتى التعامل مع الزوار الثلاثة . وهذه المواصفات التى قدمها برنارد عن السفن تقترب فى وصفها من السفن الحربية الضخمة المعروفة باسم الشينى أو الشينى الغزوانية التى أشار إليها معجم السفن الإسلامية ، وذكر أن بها حوالى مائة وأربعين مجدافاً وتحمل أحياناً ألفاً من المحاربين وكان يقام فيها الأبراج وصهاريج للماء ومخازن للحبوب وهى بذلك معدة لأعمال الهجوم والدفاع[٥٢] . أما حينما ارتحل الثلاثة عن الإسكندرية إلى الفسطاط نجدهم استخدموا إحدى السفن بالنيل وكان النوع السائد منها يعرف بمسمى المراكب النيلية لاقتصارها على المرور فى النيل والترع المتفرعة لنقل التجارة أو المسافرين ، وقد قال المقريزى عنها : «وأما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر فى النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد ومنحدرة إلى أسفل الأرض لحمل الغلال وغيرها[٥٣] » وفى البر كانت الجمال الوسيلة المستخدمة للوصول إلى القدس .

وإذ نحن لازلنا بصدد تناول النواحى الاقتصادية ، نجد ذكراً **للعملة** فى رواية برنارد إذ تطرق إلى الحديث عنها فى عدة مواضع ؛ فذكر القطع الذهبية من دينار وصولدى Solidi[٥٤]

---

(٥١) حسن إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى السياسى ، القاهرة ١٩٦٢م. ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ ؛ راجع أيضاً : السيد عبد العزيز سالم : العصر العباسى الأول ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ؛ ولمزيد من التفاصيل ، انظر :سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦م. ، ص ٤٢ - ٦٦.

(٥٢) درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م. ، مادة شينى ، ص ٨٣ - ٨٥ .

(٥٣) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ ، ١٩٥ ؛ راجع أيضاً : درويش النخيلى ، المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٥٤) لفظة «دينار» مشتقة من اللفظة اليونانية اللاتينية Denarius - Aureus ، وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب قبل الإسلام وبعده ، وضبط الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فى عام ٧٤ هـ / ٦٩٣ م. عيار هذه السكة الذهبية بحيث أصبح الوزن الشرعى للدينار الإسلامى ٤,٢٥ جرام ، عيار ٢٣/٤ ٢قيراط ، واختفت الصور من نقوشه واستبدلت بالعبارات التى تشير إلى شهادة التوحيد والرسالة المحمدية وتاريخ الضرب . انظر : عبد الرحمن فهمى محمد : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤م. ، ص ٨ - ٩= = ،

والثابت أن التعامل بهذه العملات كان قد ساد الجنوب الإيطالى إذ عرفت بنفنتيو على سبيل المثال الصولدى الذهبى قبل الغزو الكارولنجي ٧٧٤ م. وظلت بعد ذلك تتعامل بالصولدى الخاص بها ومالبثت أن تأثرت بالغزو ، فعرفت الدينار الفضى الكارولنجي ، وسرعان ما أحيى التعامل بالصولدى الذهبي ؛ ولكنه هبط بما يزيد عن الثلث فى قيمته حتى استيلاء لويس الثانى الكارولنجى عام ٨٦٦ م على المدينة ففرض التعامل بالدينار الخاص به [٥٥] . وعلى كلٍ ، فمن الملاحظ أن العملات الواردة فى الرواية خضعت للتعامل بين أفراد الرحلة ومسلمى المنطقة الذين كان لديهم عملتهم المعروفة بالدنانير الذهبية العباسية التى ظلت متداولة فى كل من مصر والشام وقت الرحلة حتى استبدلت بدنانير ابن طولون الأحمدية فى عام ٨٨٠ م/٢٦٦ هـ . بعد توحيد مصر والشام [٥٦] ، وعليه كان من الضرورى وزن القطع الذهبية التى فى حوزة الزوار لتقييمها . وهذا ماأشار إليه برنارد بالفعل ذاكراً أنه من عادة المسلمين معادلة العملات الأجنبية (التى معهم) بالعملات المحلية بالاسكندرية حيث تم معادلة الستة صولدات والستة دينارات من عملتهم بثلاثة صولدات وثلاثة دنانير من العملة المحلية ، وهذه القاعدة الاقتصادية أثبتها المؤرخ الشهير عبد الرحمن ابن خلدون حين أورد لزوم وجود معيار تقييما لقيمة العملة «على أن يتم التعامل بها بعد ذلك عدداً فإن لم تقدر أشخاصها يكون بها وزناً» [٥٧] ونخلص من هذا إلى أن العملة الإسلامية العباسية كانت قوية بالقدر الذى أصبحت به تعادل ضعف مثيلتها التى كانت فى حوزة الزوار القادمين من أوربا الغربية .

أثارت المعاملات النقدية لدى برنارد وزميليه إحساساً بأنهم تعرضوا للابتزاز من السلطات الإسلامية ، وأشار صاحب الرحلة إلى ذلك غير مرة ، بل أفصح صراحة عنها أخيراً كما ورد فى النص . ولنا هنا وقفة للتعرف على المواقف التى جعلت هذا الإحساس يتسرب إليهم : ويتلخص الموقف الأول فى أن الحجاج اتهموا قبطان السفينة التى نقلتهم من تارينتوم إلى الاسكندرية بأنه منعهم من الهبوط إلى الشاطىء «ولكن حين أعطيناه ست قطع ذهبية سنحت أمامنا الفرصة للنزول إلى البر بعد أن تم السماح لنا بذلك» أما الموقف الثانى فعندما قابل الحجاج الثلاثة حاكم

= أما الصولدى فهي عملة رومانية ذهبية قديمة استبدلت بعملة النومسما Nomesma فى الامبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى التي أطلق عليها فيما بعد بيزنت Besant، كانت تتمتع باستقرار قيمتها الذهبية وبتفاوت وزنها الحقيقى بين ٣,٨٨ ، ٤,٤٤ جرام من الذهب . ولمعرفة المزيد عن هذه العملة ، راجع : عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ، ص ٢٧١، وقد عبر الناشر ولكنسون عن العملتين فى النص باستخدام لفظى الجنيه guineas والشلنج Shilling وهو ماتجزأ عن الجنيه ، ربما لرغبته فى تقريب الصورة للقارىء .

(٥٥) Christie Neil, Op. Cit., pp. 219 - 220.

(٥٦) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ، القاهرة ١٩٤٧م. ، ص ٢٩٩ ؛ عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٥٧) ابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به) ، القاهرة ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م. ، ص ٢١٨ .

الإسكندرية وسلموه خطاب سلطان الذى يحمل وصفاً لأشخاصهم وهوياتهم «لم يحرك ساكنا حياله برغم أنه لم ينكر محتواه وأمام هذا الموقف قام كل منا بإعطائه ثلاثمائة دينار أخذها لنفسه ، وحينئذ قام بتحرير خطابات لنا لتقديمها إلى حاكم بابلونيا »(الفسطاط) . أما الموقف الأخير فيقول برنارد عنه : «وبمجرد أن وصلنا إلى المدينة قادنا حراسها إلى الحاكم (ابن طولون ذكره باسم أدلشام Adelacham) فسألنا عن هدف رحلتنا وعن الأمراء الذين نحمل خطابات منهم ؛ ولذا أريناه خطابات كل من : سلطان ... وحاكم الإسكندرية ولكنها لم تنفعنا بشىء وعليه قام بإيداعنا السجن ، وبعد ستة أيام خطر ببالنا بعون من الله ، بأن يعطى كل منا هذا الحاكم مبلغ ثلاثمائة دينار كما حدث فى المرة السابقة ، وحينئذ قام الحاكم بمنحنا خطابات لم يجرؤ أحد ممن شاهدها فى أى مكان أو مدينة على أن يبتزنا مرة أخري ... غير أنه حينما كنا ندخل أيا من المدن التى سيلى ذكرها لم يصرح لنا بالخروج منها إلا بعد الحصول على تصريح مكتوب على إحدى الرقائق مقابل دينار أو دينارين».

وبعد استعراض هذه المواقف من واقع كتابات صاحب الرحلة يتبين أن الشرق الإسلامى عرف نظماً إدارية دقيقة لم يكن الأوربيون يألفونها فأسيىء فهمها من قبلهم وأعدوها نوعا من الابتزاز إذ يذكر المؤرخ المسلم المعاصر ابن الداية المتوفى حوالى ٣٣٠ هـ/٩٤١م . أن موسى أخو أحمد بن طولون طلب منه جوازاً للسفر بترك الديار المصرية . وفى موضع آخر ذكر المؤرخ رواية فحواها أن تاجراً أراد أن يجتاز الحدود عند العريش ومعه خادمه بجواز سفر واحد للتاجر ، فاستوقفه حبيب المعرى مسئول الجمارك لاعتقاده أن الخادم يلزمه جواز سفر مستقل ، وبعد مقابلة التاجر مع أحمد بن طولون تم استخراج جواز سفر قانونى مستقل للخادم [٥٨] وعلى هذا ترى إحدى الباحثات أن حكومة أحمد بن طولون كان لديها إدارة لجوازات السفر والجمارك [٥٩] ، ومن ثم نجد بين أيدينا دليلين يؤكدان على أن مصر عرفت ضوابط داخلية تنظم حركة المسافرين منها أما عن الضوابط التى تنظم حركة الوافدين إليها ، وانتقالات الأجانب الداخلية وانطلاقاً منها ، فيمكن الوقوف عليها من خلال ماأورده الراهب برنارد من المعلومات المتصلة بهذا الشأن.

لعل إدراك واقع التنظيم الإدارى والجمارك وحركة الانتقال فى مصر على هذا النحو يعطى الفرصة لفهم المواقف التى تعرض لهابرنارد ورفيقاه على حقيقتها ، كما يمكننا من خلالها التعرف على جانب من القواعد المتبعة للتعامل مع الأجانب الوافدين ؛ ففيما يختص بالموقف الأول فالواضح أن قيامهم بدفع ست قطع ذهبية إلى قائد السفينة كان بمثابة أجرة نقلهم على السفينة عن رحلة امتدت من تارينتوم حتى الإسكندرية إذ إنه عاملهم بصفتهم ركاباً ليسوا كبقية من كانوا على ظهر السفينة من الأسرى المعفيين بالطبع من دفع الأجرة ، أما الموقف الثاني

---

(٥٨) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ، نشره فولرز منجار ، عام ١٨٩٥م .

(٥٩) سيدة إسماعيل الكاشف : أحمد بن طولون ، القاهرة ١٩٦٥م. ، ص ١٧٧ - ١٧٨

فإن دفع مبلغ ثلاثمائة دينارا (الذى عدله الناشر ولكنسون وجعله ثلاثين دينارا) إلى إسحق بن دينار والى الإسكندرية كان عبارة عن تحصيل رسوم تجبى من زوار الإسكندرية الأجانب للسماح لهم بالدخول ، وللحصول على خطابات موجهة إلى أحمد بن طولون والى الفسطاط ، إلا أنهم ظنوا فى أن والى الإسكندرية حصل هذه الأموال لنفسه . أما الموقف الثالث وهو عندما اضطروا لدفع مبلغ ثلاثمائة دينار أخرى عن كل ي منهم (عدله ولكنسون وجعله ثلاث عشرة دينارا) إلى والى الفسطاط ، فيرجح أنه أمر ضرورى استكمالاً لإجراءات الحصول على تصريح نهائى يخول لهم حرية الحركة فى البلاد التى يرغبون فى زيارتها ، بدليل أن برنارد نفسه أمر بأن أحدا لم يجرؤ بعدها على ابتزازهم مرة أخرى ، ولايفوتنا فى هذا الموضع الإشارة إلى الأوضاع داخل مصر ، إذ كان والى الإسكندرية ابن دينار لم يخضع بعد لسيادة أحمد بن طولون ، الأمر الذى أوجد ازدواجية فى التعامل مع الزوار الأجانب في كلتا الولايتين . وبينما تنتهى الاجراءات مع هؤلاء الأجانب على هذا النحو ، كان عليهم الخضوع للنظم الإدارية المحلية التى تقضى بدفع الرسوم الزهيدة التى قدرها الحاج الأوربى بدينار أو اثنين للانتقال من مدينة إلى أخرى فى البلاد الإسلامية فى أثناء الرحلة بعد مغادرتهم للفسطاط .

أما **الزراعة** فقد أرجىء الحديث عنها ضمن الجانب الاقتصادى ، إذ بالرغم كونها الدعامة الأساسية لاقتصاديات مصر فى هذا العصر ، فإنها لم تحظ إلا بقدر يسير من اهتمامات برنارد الحكيم فى مدونته ، إذ اكتفى بالإشارة إلى حقيقة أن النيل أو جيحون – حسبما أورد – هو الذى يروى مصر ، ثم تعرض إلى منطقة شمال سيناء وهو فى طريقه إلى فلسطين ذاكرا أنها مقفرة ليس بها أى من المحاصيل أو الأعشاب ، ولاتنتج إلا النخيل الذى رآه أبيض كما هو الحال فى البلاد التى يغطيها الجليد . والواضح أن برنارد اجتاز الصحراء فى وقت الربيع حينما تنشط الرياح بها ، محملة بالرمال والأتربة التى كست النخيل بلونها الأبيض الأمر الذى جعله يقرن بين الأمرين ، أما مدينة غزة ، فقد سجل عنها برنارد أنها بلدة مثمرة غنية للغاية بكل المنتجات .

وننتقل فى صفحات البحث التالية إلى دراسة ماورد فى رحلة الراهب برنارد فيما يختص بالنواحى **الاجتماعية** : إذ تعرض فى حديثه إلى أهل الذمة من المسيحيين داخل المجتمع الإسلامي فى مصر وفلسطين . وبرغم أنه عنى فى حديثه بطائفة الكاثوليك منهم بالإشارة إلى بطريركهم المنتخب فى كنيسة الجليل ميخائيل بالفسطاط إلا أن سياق الرحلة فيما بعد يتعرض للحديث عن المسيحيين بطوائفهم المختلفة فى المجتمع الإسلامى فى معظم الأحوال . ولعل فى وجود نظام اجتماعى قائم على وجود بطريرك يشرف على المسيحيين ، مايؤكد تسامح الحكام المسلمين حيالهم حتى أنهم أبقوا على كثير من الأنظمة التى ألفوها من قبل الفتح ، وهذا ماأكد عليه أيضاً المؤرخ النصرانى يحيى بن سعيد الأنطاكى ، ومما يذكره فى هذا الصدد ، بقاء أنشطة المسيحيين الاجتماعية والدينية حتى زمن الرحلة ومابعدها تحت إشراف من بطريرك حصن بابيلون فى كنيسة الجليل ميخائيل وبطريرك الإسكندرية (٦٠) .

---

(٦٠) يحيى بن سعيد الأنطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

كذلك عنى صاحب الرحلة بالتعرض إلى بعض مراكز تجمع المسيحيين وأنشطتهم فى المدن التى مر بها ، فحينما قصد تنيس وصفها بأنها مدينة يسكنها مسيحيون دفعهم تدينهم الشديد إلى أن ينزعوا إلى حسن الضيافة والكرم الشديد ، كما أن بها عدداً من الكنائس سجلت المصادر اسم اثنتين منها وهما : كنيسة أبى جبلة «وهى كنيسة أهل الملة الجامعة التى الأسقف نازل بها» ، وكنيسة أبى مينا التى قام أسقفها المعروف باسم «ثاوفيلس بن الشقى» فى عام ٩٣٩ م/ ٣٢٨ هـ، بترميمها ووقف الأوقاف عليها الأمر الذى يوحى بوجودها وقت الرحلة . وفى مدينة الفرما ذكر برنارد أن بها كنيسة مريم المباركة ، وجدير بالذكر أن هذه الكنيسة تضم كرسى أسقفى . ولعل هذا المركز الدينى للمدينة هو الذى شجع القبط على سكناها وفقاً لما أورده ياقوت الحموى [٦١] وأخيراً فالرحلة تشير إلى مجتمع مسيحى آخر وهم الذين عملوا كباتعين عند نزلى البتشارا والبارا على طريق الفرما – العريش . وفى بيت المقدس سجل الرحالة ملحوظاته عن المسيحيين فيها من أن الوالى العباسى عليها (وهو أحمد بن عيسى) كان يسمح لكل من يتحدث اللسان اليونانى ويرغب فى التعبد بالوفود إليها ، وهو بذلك يقصد الزوار القادمين من أرجاء أوروبا وخاصة من بلاد الامبراطورية البيزنطية ، نظراً لأنها عادةً ماكانت تشرف على كنيسة القيامة بتصريح من الخليفة العباسى . ومن ناحية أخرى ، فتنصيب بطريرك ، يتم اختياره للمدينة يشرف على الشئون الدينية للأهالى من المسيحيين فيها ، يؤكد على وجود مجتمع لهم فى فلسطين وخاصةً فى القدس .

تعرضت الرحلة أيضاً إلى جانب اجتماعى آخر مهم ، ألا وهو مايتعلق بالضريبة الواجب على أهل الذمة دفعها ، وعرفت فى المجتمع الإسلامى بالجزية ، إذ ورد بالرحلة أنه كان هناك قانون يسرى على كل من المسيحيين وكذلك ماأسماهم صاحبها بالوثنيين Jentiles ، يقضى بأن يدفع كل شخص عن نفسه ضريبة سنوية إلى السلطات ، ممثلة فى الوالى مقابل أن يبقى آمناً وحراً ، وقد قدر برنارد هذه الجزية بواحدة أو اثنتين أو ثلاث قطع ذهبية أى دنانير ذهبية . وقد أثبتت المصادر الإسلامية صحة هذه المعلومات إلى حد كبير، بيد أنها أوضحت أن أقباط مصر كانوا يدفعون هذا القدر من الجزية طبقاً لطبقاتهم الثلاث : دنيا ووسطى وعليا [٦٢] ، وهنا ينبغى الإشارة إلى أن رؤية الحاج الأوروبى للمجتمع المصرى هذه قد بناها فى أثناء زيارته ، فى وقت كانت البلاد فيه تمر بظروف سياسية واجتماعية غير مستقرة . إذ واكبت الفترة الانتقالية بين عزل ابن المدبر المتعسف فى جمعه للضرائب ، وقدوم عامل الخراج الجديد محمد بن هلال ، وولاية ابن طولون الذى خفف الكثير منها [٦٣] ، غير أنه يبقى أن نجد تفسيراً لما ذكرته الرحلة

---

(٦١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ ، ٢٧ ؛ ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٥٦ .

(٦٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٦٩ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ص ١٢٨ .

(٦٣) ابن الداية : المصدر السابق ، ص ١١ ، ٣٣ ، ٦٤ ؛ المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٧ - ١٠٩ ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

فيما يختص بالوثنيين ، فهل المقصود بهم اليهود أم الروم الأرثوذكس أم المسلمون أنفسهم أو غيرهم ، أيا كان الأمر فالإسلام تعامل مع هذه القضية بوضوح ، إذ وفقاً لأحكام شرعية ، كان على جميع أهل الذمة مسيحيين ويهود بشتى طوائفهم دفع الجزية فى حين يعفى المسلمون منها .

ثم واصل برنارد حديثه عن موضوع الجزية قائلاً : «وفى حالة ما إذا كان المسيحى من الطبقة الدنيا ، فكان عليه أن يدفع ثلاثة عشر ديناراً ، أما إذا لم يتمكن من دفع هذه الثلاثة عشر ديناراً فيودع السجن سواء أكان من أهل البلد أم كان مسيحياً أجنبياً ويظل قابعاً فيه حتى يرسل له الله ملاكه ليقبض روحه أو أن يتولى مسيحيون خيرون آخرون إخراجه» . ولعل هذه العبارات تعكس عدم استيعاب صاحب الرحلة قضية الجزية ، فليس من المنطقى أن يدفع المسيحى المعدم مبلغ ثلاثة عشر ديناراً وهو يشكل أضعاف ماأورده الرحالة نفسه سالفاً، بيد أنه بالرجوع إلى العديد من الرحلات المدونة لأوربيين جاءوا لزيارة مصر تم العثور على ماقد يكون تفسيراً لما أورده برنارد ولم يستوعبه . فقد ذكر رحالة من ربيى اليهود يدعى مشلم بن الرابى مناحم أوف ڤولتيرا الذى قدم إلى مصر فى سياحة دينية عام ١٤٨١م. أن المسيحى الأوروبى كان عليه أن يدفع مبلغ ثلاثة عشر من الدوكات Ducats الذهبية إلى السلطات المصرية نظير دخوله الديار (٦٤) ، وعليه يتضح أن مبلغ ثلاثة عشر ديناراً التى أشار إليها برنارد بوجوب دفعها من قبل القبطى أو المسيحى الأجنبى كانت قاصرة على الزوار الأوروبيين دون أهل البلد ، وبذلك بدا هذا الحاج الأوروبى غير دقيق مرة أخرى فيما يتعلق بقضية الجزية حتى أنه تخيل أوضاعاً غير حقيقية .

وبرغم عدم إدراك برنارد لكثير من الأمور الدقيقة فى المجتمع الإسلامى بالمناطق التى زارها ، مما جعله يحيد عن الصواب شيئاً ما فى تقدير بعضها إلا أنه كان منصفاً فى مواضع أخرى ، وهذا يتضح من المقارنة التى عقدها بين المجتمعين الإسلامى والمسيحي الأوروبى فى عصره بعد احتكاكه بكل منهما . فهو يؤكد علي أن المجتمع فى مصر وفلسطين كان يتمتع بحالة من السلم الاجتماعى شملته بطائفتيه الإسلامية والمسيحية ويقدم دليلاً على ذلك ، إذ يقول : «إذا ماكنت فى رحلة وأمتطى فيها جملاً أو حماراً يحمل أمتعتى القليلة ونفق الجمل أو الحمار فاضطررت إلى ترك كل متاعى بدون حارس عليه ، وذهبت إلى المدينة لأحصل على دابة أخرى ، فإننى سأعود لأجد كل ممتلكاتى كما هى دون أن تمس بسوء ، وهذا هو السلام الذى يتمتعون به هناك». وفى المقابل يذكر الرحالة عن المجتمع الأوروبى «ولكن تجرى فى رومانيا [يقصد المنطقة

---

(٦٤) أوضحت ذات الرحلة أنه كان يتم إعفاء اليهود الزائرين من دفع رسوم الدخول إلى مصر ، وكان عليهم فقط الحصول على تصريح من الأمير بذلك ، راجع :

Meshullam Ben R. Menahem of Volterra , The etinerairy of R. Meshullam .... 1481 A. D, in Jewish Travellers, ed. by Elkan Nathan Adler , London 1930, pp. 159 - 178

الوسطى من إيطاليا] أشياء كثيرة سيئة كما يوجد بها رجال أشرار ؛ منهم من يسرق ومنهم من ينهب . أما هؤلاء الذين يتمنون الذهاب إلى القديس بطرس لايستطيعون عبور رومانيا إلا إذا كانوا فى صحبة كبيرة ومسلحة بصورة جيدة» ولكنه استثني كل من مقاطعتى لمبارديا وبرتانى الواقعة ضمن ممتلكات شارل الأصلع ، فذكر أنهما تنعمان بالهدوء والسلام .

وهكذا فبعد تناول المادة التاريخية فى رحلة برنارد فى دراسة تاريخية نقدية ، ثمة ملحوظات عن الرحلة ميزتها أيضاً فيما ورد من **معلومات جغرافية** ، إذ نلمس دقة صاحبها فيما ساقه عن الكثير منها غير أنه لم يكن موفقا فى ذكر بعضها الآخر. ومن المعلومات الجغرافية التي كان دقيقاً فى إيرادها : إنه حددموقع ميناء الإسكندرية فى شمالها ، كما أن النيل (٦٥) يشقها من أوسطها من جهة الجنوب حتى يصب فى البحر المتوسط . وهذا الوصف يتفق مع وصف الإسكندرية زمن الرحلة إذ كانت تتصل بالنيل بواسطة ترعة شيديا التى كانت تقوم مقام ترعة المحمودية الحالية أو الخليج الناصرى فى العصور الوسطى (٦٦) . وعندما كان برنارد فى رحلته من عاصمة مصر ، (الفسطاط والعسكر معاً) إلى دمياط أشار إلى موقعى ستيث Sitinuth ومعالا Maalla ، وبالتحقق من هذين الموقعين يتبين أن المقصود بالموقع الأول هو مدينة سمنود الواقعة على فرع دمياط ، وعلى بعد خمسة وأربعين ميلاً إلى الجنوب الغربى منها ، أما الموقع الآخر فلعله محلة إنشاق (٦٧) - على الطريق المقابل المؤدى إلى شربين - نظراً لأنه قريب النطق من مسمى «محلة» الذى يطلق على عدة مناطق فى الدلتا ، كما أنها تقع على ذات الفرع فيما بين مدينتى سمنود ودمياط ، الأمر الذى يدفع إلى الاعتقاد فى أن الموقعين استخدما بصفتهما قاعدتين تتوقف فيهما السفن النيلية زمن الرحلة .

تناول برنارد مدينة دمياط بوصف يغلب عليه الدقة أيضاً ، فذكر أن البحر يحيط بها من جهة الشمال ونهر النيل من بقية الجوانب عدا قطعة قاحلة ضيقة من اليابس . وهذا يتفق مع الواقع الجغرافى ، إذ وصفت بكونها شبه جزيرة فبينما هي تطل على البحر المتوسط شمالاً ، فالمياه العذبة لفرع دمياط وبحيرة تنيس «بحيرة المنزلة» يحدها غرباً وشرقاً . وبذا فإن المنفذ

---

(٦٥) أطلق برنارد على النيل مسمى آخر ، وهو جيحون The Gihon . وفى الواقع ، عادةً ماكان النيل يلفت أنظار الزائرين وممن أفاض فى وصفه فلكس فابرى الذى أورد عديداً من أسمائه، فبالإضافة إلى مسمي جيحون ذكر أسماء أخرى له ، مثل : الجنة Paradis ، جيناز Geneѐse ، نيلون Nilcon ، علاوة على مسمى النيل الذى أطلقه المصريون عليه ، راجع :

Fabri, Félix , Op. Cit., pp. 607 - 608

(٦٦) محمد جمال الدين الشيال : طبوغرافية الإسكندرية وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثانى ١٩٤٩م. ، ص ٢٠٣ .

(٦٧) Bernard the Monk , Op. Cit , p. 141 , n2 .

البرى الوحيد إليها من جهة الجنوب (٦٨) ، وعندما قصد برنارد تنيس سجل مارآه من ضيق أرضها حتى أنه رأى أنها لاتسع إلا مابها من كنائس ، كما سجل ظاهرة جغرافية أخرى وهى انبساط أرضها ، وهذه الحقائق أشار إليها الجغرافيون العرب المعاصرون حينما ذكروا أن «بحيرة تانيس .... بها مدن كالجزائر ولاطريق إليها إلا فى السفن» (٦٩) . كذلك جاء وضع ترتيب المدن التى مر بها برنارد صحيحاً من الناحية الجغرافية حيث مر بالفرما والعريش وغزة والرملة وعمواس ومنها إلى بيت المقدس، وفيها أورد أسماء ومواقع بعض كنائسها بشكل صحيح ولاسيما كنائس السيدة مريم والقيامة وصهيون والقديس بطرس والجثمانية والصعود . وبعد انتهاء رحلته فى فلسطين فى طريق العودة نجده يقول: «ظللنا نبحر لمدة ستة أيام بصعوبة كبيرة لأن الرياح لم تكن مواتية لاتجاه السفينة». وهذه الظاهرة الجغرافية تتفق مع الواقع إذ إن اتجاه الرياح فى البحر المتوسط غربية معاكسة للرياح التجارية الشرقية كما هو معروف ، ومن ثم كانت تعرقل سير السفن القادمة من الشرق . وأخيراً ، نجده يسجل ظاهرة ارتفاع المياه وانحسارها حول جبل القديس ميخائيل صاحب المقبرتين عند بحر الشمال فيما يعرف اصطلاحًا بظاهرة «المد والجزر» فى الكتب الجغرافية.

أما فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية غير الدقيقة لدى برنارد أو التى جانبه فيها الصواب فهى عديدة أيضاً، ومن ذلك عدم قدرته علي تقدير المسافات. فكانت ملاحظة شائعة إذ حدد المسافة بين جبل جرجانوس شرق روما وميناء بارى بمائة وخمسين ميلا فى حين إنها فى الواقع تزيد عن أربعمائة ميل الخط المباشر وركوب البحر. وعندما ارتحل إلى فلسطين قدر المسافة من القدس إلى بيت لحم بمسافة ميل واحد ، فى حين إنها تقارب ستة أميال ، كذلك قدر المسافة بين بيت لحم ودير الكهنة المقدسين فى رامة الخليل بمسافة ميل واحد، فى حين إنها تزيد عن الاثنى عشرة ميلاً. وفى معرض الحديث عن الأماكن الدينية لم يهتم بذكر أسماء بعض الكنائس وحدد موقع بعضها خطأ كما هو الحال بالنسبة لكنيسة القديس ستيفن، حيث حدد موقعها إلى الشرق من كنيسة صهيون الواقعة فى الجنوب فى حين إنها تقع إلى الشمال من المدينة المقدسة. كما ذكر أن هناك كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا فوق جبل الزيتون فى حين إنه ليس بالموقع كنيسة تحمل المسمى المذكور وأخيراً نجده حدد موقع بلاد بابل التى ذكر اسم ملكها نبوخذ نصر Nebuchad nezzar فى جنوب القدس وقت تواجده بها وأضاف أنها مسكونة بالأفاعى والوحوش البرية، ومن ثم أخفق فى تحديد موقعها ، كما أساء وصفها ، إذ إن العراق كانت تتمتع بفترة من الرخاء ،

---

(٦٨) لمعرفة المزيد عن موقع دمياط الاستراتيجى ، راجع : محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، حملة چان دى برين على مصر (١٢١٨ - ١٢٢١ م/ ٦١٥ - ٦١٨ هـ .) الإسكندرية ١٩٨٥ ، ص ١٨٦ - ١٨٩.

(٦٩) ابن حوقل ، صورة الأرض ، الطبعة الثامنة ، ليدن ١٩٣٨، ١٩٣٩م، ص ١٥٦؛ الاصطخرى: مسالك الممالك ، ليدن ١٩٢٧م، ص ٥٢.

العظيم فى هذا الوقت . ويبدو أنه كان متأثراً بما ورد فى العهد القديم بهذا الشأن (٧٠) . غير أنه يمكن التماس العذر له فى تلك الزلات بسبب عدم نضوج الحج المسيحى حتى وقت زيارة الحاج الأوروبى . كما أن سابقيه فى التدوين لرحلات الحج انزلقوا أصلاً في كثير من الأخطاء ، فاستعان اللاحقون بمدوناتهم تلك دليلا مرشداً.

وفى النهاية، فقد يمكن الخروج من دراسة رحلة برنارد ببعض النتائج الطيبة، فمن الواضح أن رحلات الحج الأوروبى والتى كانت رحلة برنارد ورفيقيه من أهمها قد تركت أثراً فى دفع حركة الحج المسيحى الأوروبى الغربى إلى الأراضى المقدسة بشكل أو بآخر، إذ إن أربعين حاجًا من النورمان العائدين من الأراضى المقدسة هبطوا إلى ميناء بارى بعد بضع سنوات من رحلة برنارد ومنها شقوا طريقهم إلى جبل جرجانوس حيث مزار كنيسة القديس ميخائيل (٧١)، ومن ثم فلهذه الحادثة دلالتها إذ أصبح من الملاحظ أن الحجاج الأوروبيين فى شمال القارة استفادوا من تجارب الحجاج السابقين عليهم الذين تركوا مدونات واعتبرت دليلاً مرشداً لمن يسلك طريق الحج إلى الأراضى المقدسة . ومما يؤكد هذه الملاحظة اتباعهم نفس الطريق حيث عرجوا فى طريق عودتهم على كل من بارى ومزار القديس ميخائيل . كذلك تحرى برنارد الدقة بشكل أوضح عن سابقيه فى رحلة الحج إلى القدس ، ونضرب مثلاً هنا بما ورد برحلة والبيالد عند سرده للأحداث وتناوله للأماكن. واشتملت رحلة برنارد أيضا على معلومات ومواقع لم ترد عند الكثير من الرحالة الذين كانت رحلاتهم لاحقة لرحلته .

من ناحية أخرى وقعت أحداث رحلة برنارد ورفيقيه إلى الشرق الإسلامى لتعكس بعض أوضاعه السياسية والحضارية ، بعين أوربية فى وقت كان المد فيه لصالح المسلمين حتى أن أوربا غدت مكشوفة لهم خاصة عند أطرافها الجنوبية والغربية، فى حين كانت الدولة الاسلامية ذات الهيبة والقوة عالما يغلب عليه الإبهام والغموض بالنسبة للأوروبيين، وعليه فالقدوم فى زيارة إلى بلاد المسلمين قد تقوم بتوضيح بعض جوانب هذا العالم، ولا يفوتنا فى هذا المقام الإشارة إلى أن أفراد الرحلة انطلقوا منذ البداية من مقر البابوية فى روما ، التى ظلت تنتظر تقريراً بها يقدمه برنارد فكان بمثابة نص هذه الرحلة، الموجزة فى عباراتها ، والغنية بمعلوماتها والفريدة فى زمنها ، ومع ذلك يجب الالتزام بالحذر من بعض المادة التى تحتويها.

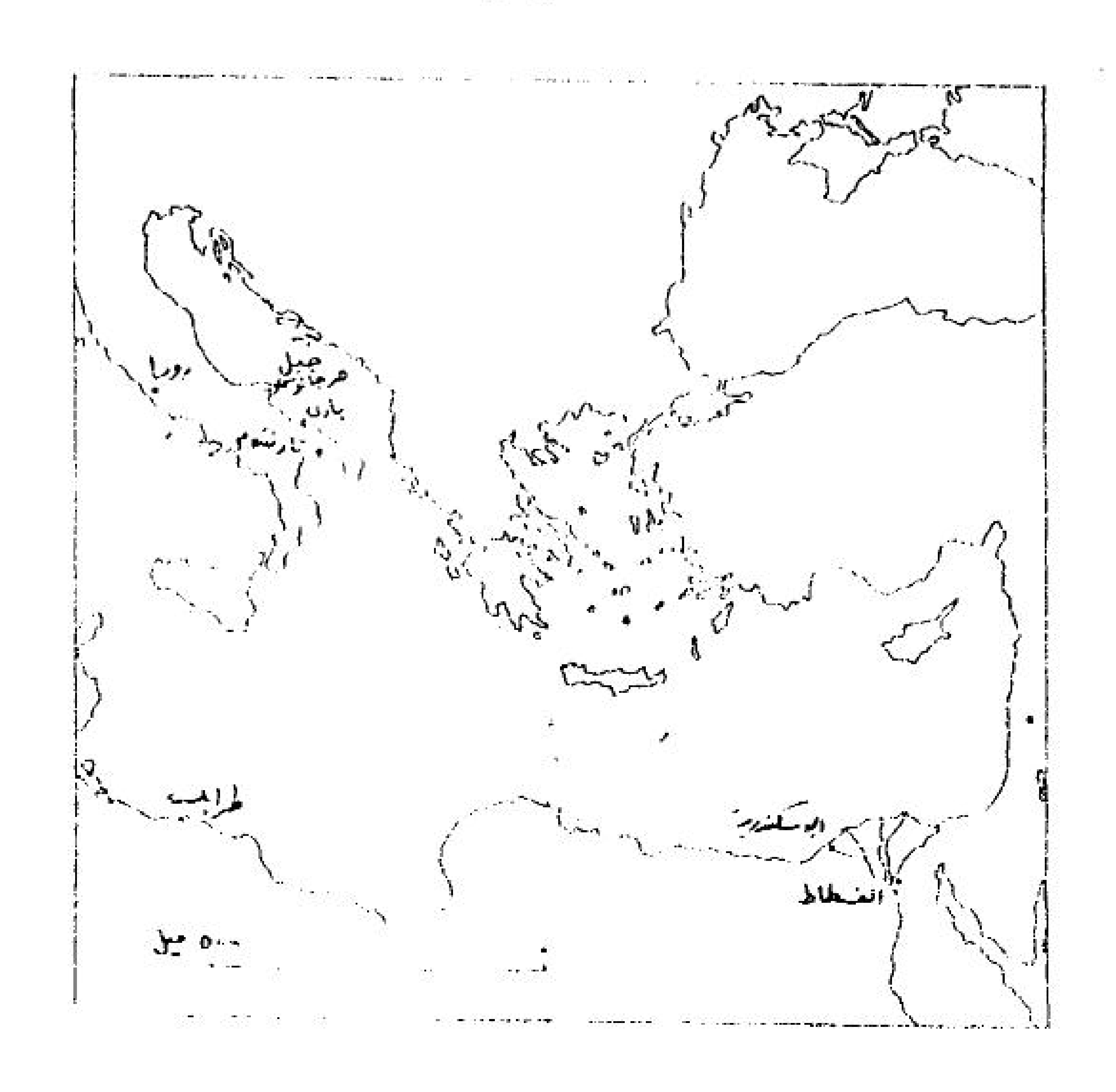
---

(٧٠) العهد القديم : أشعياء ١٤: ٢٩.

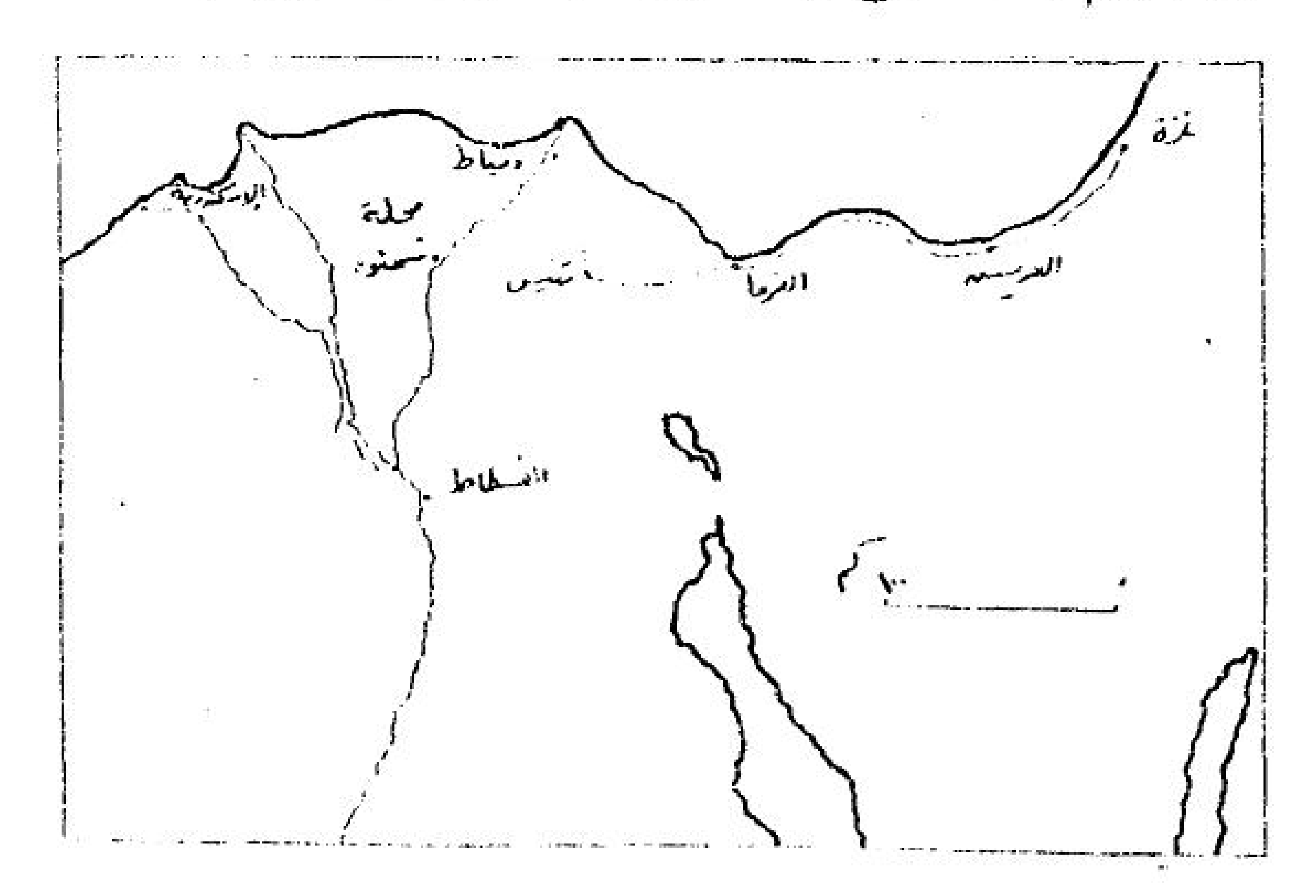
(٧١) محمد محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية فى أوروبا فى العصور الوسطى ، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٧٥، ص ٣٠٨، راجع ايضاً:

Christic Neil, Op.Cit., p,. 216.

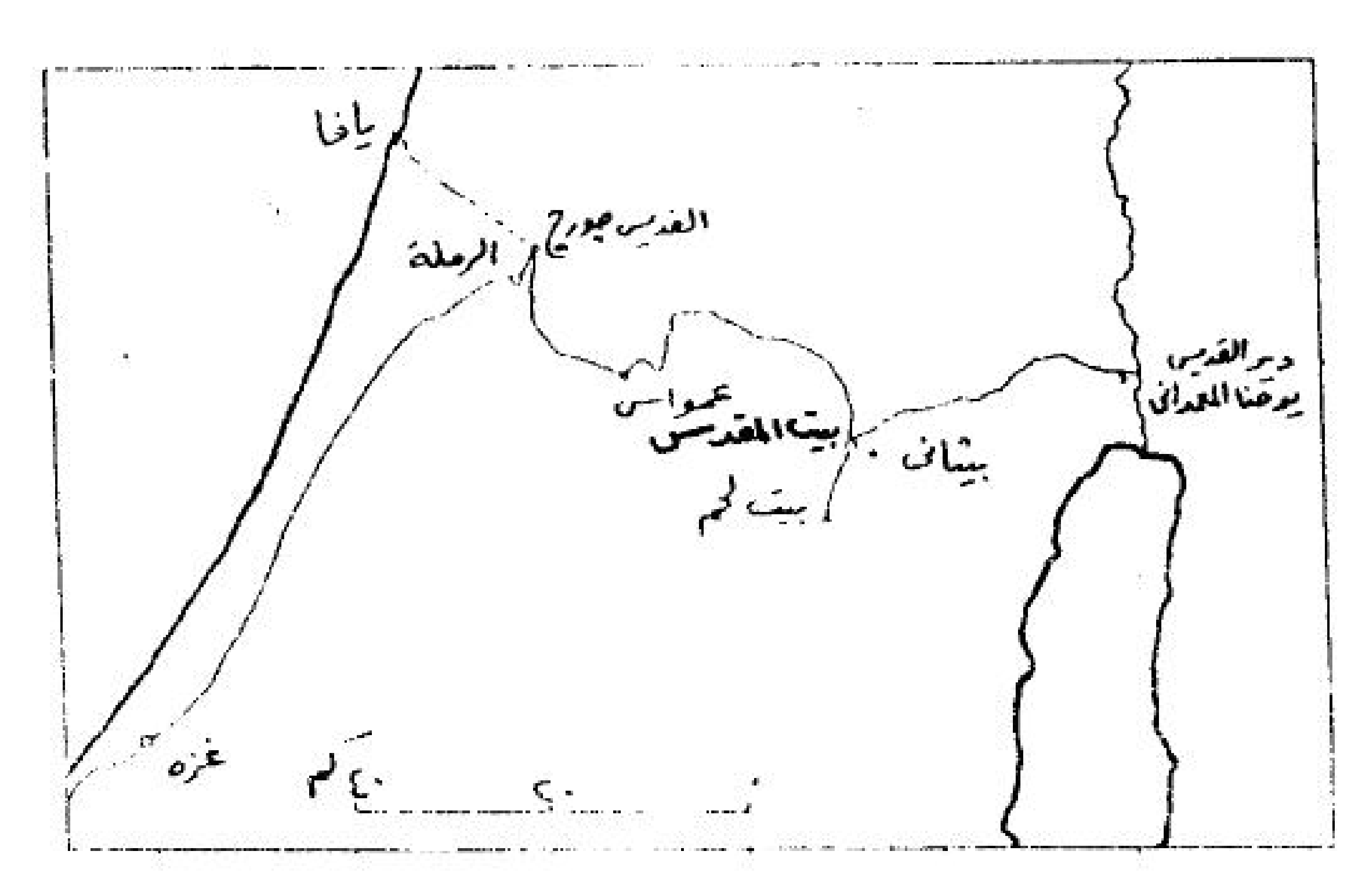
خط سير رحلة برنارد الحكيم فى مراحلها المختلفة



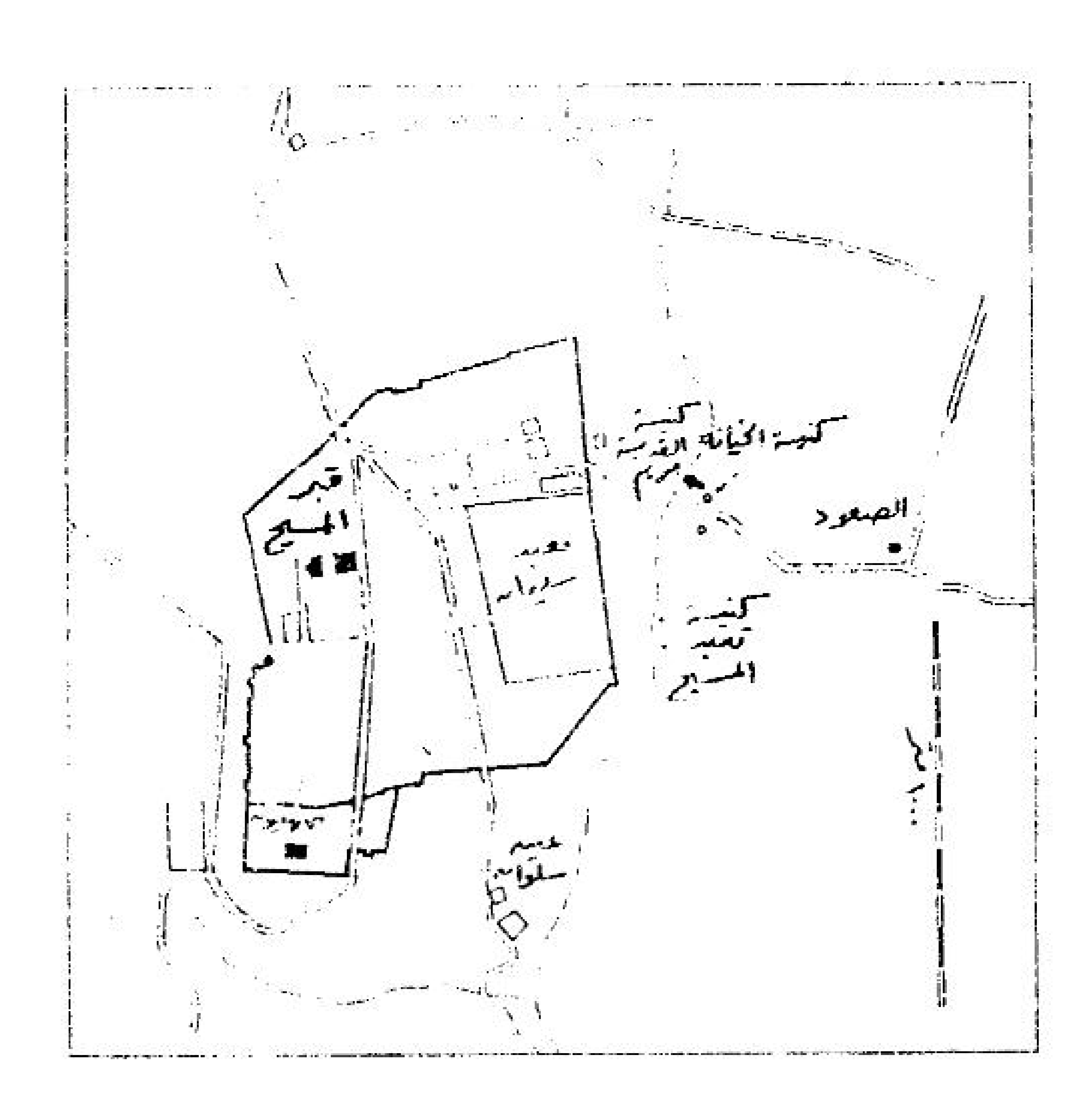
خريطة رقم (١) : خروج الرحلة من إيطاليا حتى وصولها إلى الإسكندرية.



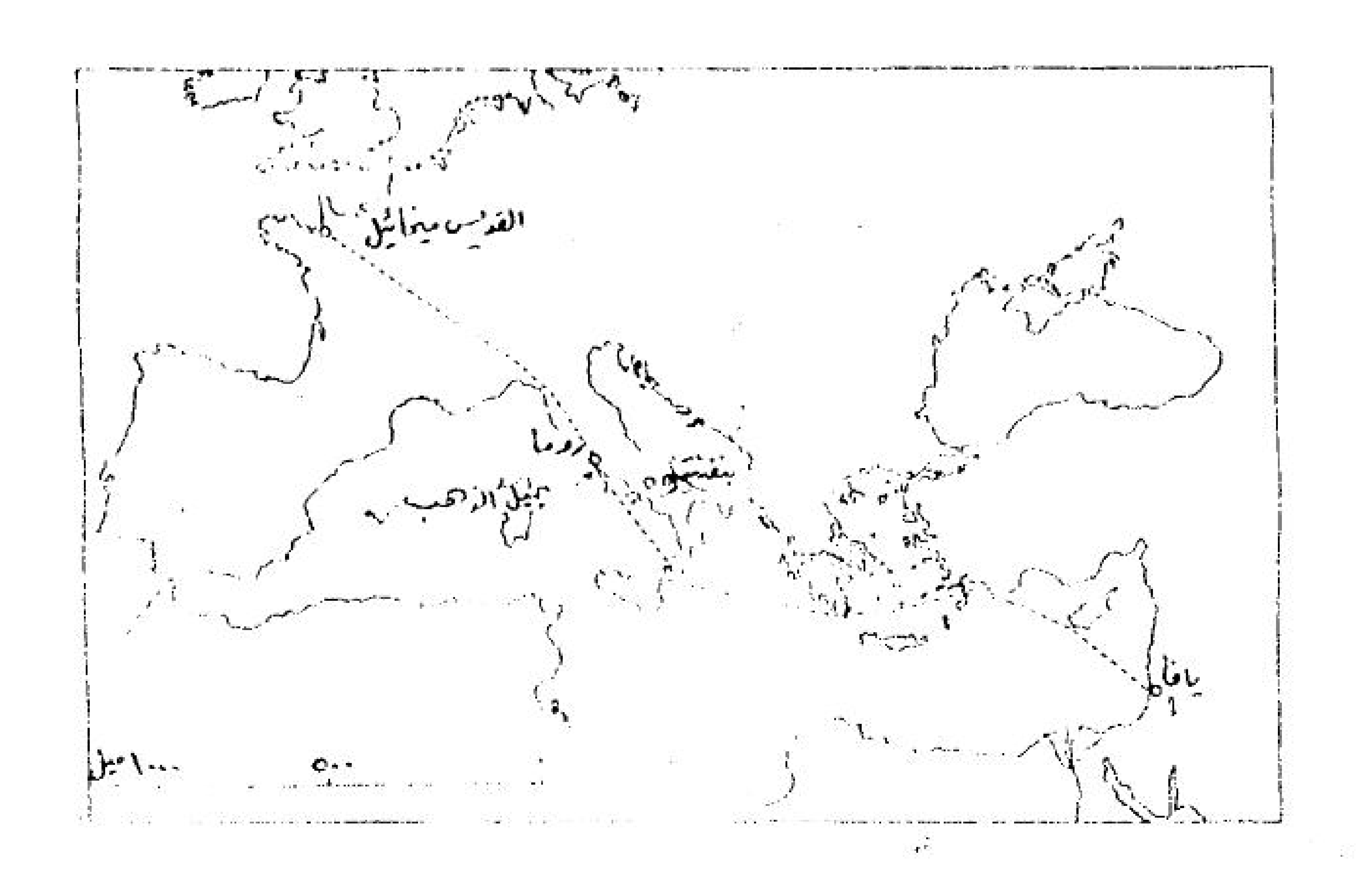
خريطة رقم (٢) : خط السير فى مصر من الإسكندرية حتى غزة .



خريطة رقم (٣) : الرحلة فى فلسطين .



خريطة رقم (٤) : معالم القدس الدينية التى شملتها الرحلة .



خريطة رقم (٥) : رحلة العودة إلى الغرب الأوربى

الخرائط نقلاً عن :

Wilkinson, J., Op. Cit., maps nos. 43 - 47 .

ملحوظات على النص :

حرص الباحث على تمييز العبارات التى أضافها الناشر جون ولكنسون من مدونات أخرى، لم يكن السابقون عليه قد استخدموها ، بوضعها بين حاصرتين رمزاً للاقتباس، كما حرص على إيراد التفسيرات التى أطلقها نفس الناشر فى ثنايا النص ، وحددها بوضعها بين الأقواس علما بأن التفسيرات لم يُمكن تحديدها إلا بعد مضاهاة النص الذى ساقه الناشر بالنصوص الأخرى ، أما الهوامش التى وضعها ، فقد مُيزت بالحفاظ علي ترقيمها العددى المسلسل ، وما دونها الواردة لدى الناشر أو برى ستيوارت فقد حملت علامة * هذا وقد استخدمت الأقواس المركنة من قبل الناشرين معًا لاضافة ما رأيا ضرورة ضمها للنص .

ترجمة للنص :

رحلة برنارد الحكيم * «ورفيقيه» ٨٧٠م [١]

من هنا يبدأ وصف رحلة ثلاثة من الرهبان وهم : برنارد ورفيقيه إلى الأماكن المقدسة وبابليون Babylon ، وشملت الرحلة وصفاً لمدينة بيت المقدس ومايحيط بها من بقاع رآها برنارد الحكيم أثناء ذهابه إلى المدينة أو عودته منها

١ - فى عام تسعمائة وسبعين من تاريخ تجسيد السيد المسيح [**] ، «فى عام ٨٧٠م.» [٢] تثبتنا من أحداث القيام بالرحلة ووصفها راجين من الله أن يوفقنا فى رؤية أرض الأنبياء فى بيت المقدس إذ اجتمعت أنا برنارد مع اثنين من الإخوة فى تقوى الله ومحبته ، وكان أحدهما يدعى ثيودمند من دير ڤنسنت المبارك فى مقاطعة بنفنتيو أما الآخر فهو أسبانى Spaniard يدعى ستيفن [٣] «وكانت فرنسا هى مسقط رأسه» [٤] وبمجرد حصولنا على شرف المثول بين يدى نيكولاس [٥] بابا المدينة (روما) فزنا بما تمنيناه حيث سمح لنا بأن نبدأ رحلتنا تحفنا مباركته ومساعدته .

---

* التزم الناشر بنص طبعة توبلر

Tobler , T.,Molinier , A.. (ed s.). Itinera Hierosoly mitana , 2 vols., Publications de la société de l' Orient Latin, Série Géographique , 1.2 Geneva 1879 - 80.

(١) إن أبكر مخطوط للرحلة الذى يرجع إلى القرن الثالث عشر يحمل نفس العنوان ، وهو محفوظ فى جامعة لينكولن Lincoln ، فى أكسفورد Oxford، كان يطلق على الكاتب اسم برنارد الحكيم Bernard The Wise.

** ورود اسم البابا نيكولاس فى ثنايا النص يكفى دليلاً على أن رحلة الحج قد تمت قبل مائة عام من هذا التاريخ ، ويتضح ذلك فى الفقرة رقم ١ ، كما يتضح فى الفقرة رقم ٢٤ من النص.

(٢) إن شرح بعض النقاط من خلال الحواشى سيجعل النص يوضح أن برنارد كان يتحدث عن أناس وأحداث تحمل تاريخاً سابقاً لعام ٨٧٠م ، وهذا العام كان واضحاً بالتأكيد فى المخطوط ، إلا أن بعض المؤلفات أرجعت التاريخ إلى عام ٩٧٠م. ، وذلك هو التاريخ الذى نقرأه فى كل المخطوطات . وكان هناك مخطوطاً يرجع تاريخه إلى عام ٨٧٠م. ضمن مجموعة كوتونيات Cottonian فى المتحف البريطانى ، لكنه فقد فى منتصف القن التاسع عشر ، وفقاً لما ذكره ت. رايت فى كتاب الرحالة الأوائل فى فلسطين ، لندن ١٨٤٨ ، ص١٦

Wright., T., Early Travels in Palestine

وقد ورد فى نص برنارد مايؤكد على أنه بدأ رحلته قبل وفاة البابا نيكولاس فى عام ٨٦٧م .

(٣) إن هذه العبارة ساقطة من مخطوط ريمس Rheims.

(٤) إن هذه العبارة مسجلة فى مخطوط ريمس .

(٥) إعتلى نيكولاس الأول Nicholas I منصب البابوية من عام ٨٥٦/٨٦٧م.

٢ - وبمجرد أن تمكنا من الخروج من هناك وصلنا إلى جبل جرجانوس
ميخائيل على بعد رمية حجر منه ، ومن فوقها على سفح الجبل يبدو ا
ويقال أن كبير الملائكة هو نفسه الذى خصص هذه الكنيسة لخدمة الله .
الشمال وهى تتسع لستين رجلاً وفى الطرف الشرقى داخل الكنيسة يو
المذبح فيوجد بالجانب الجنوبى حيث تقدم فوقه الأضاحى ولايتم وض
وهناك آنية مخصصة لوضع الهبات معلقة قبل الوصول لهذا المذبح ،
عدد من المذابح الأخرى . وكان رئيس دير الرهبان يدعى بنيجنا توس Benignatus وكان يشرف على عدد كبير من الإخوة .

٣ - بعد مغادرة جبل جرجانوس بمسافة مائة وخمسين ميلاً وصلنا لمدينة للمسلمين [٦] تدعى باري وكانت تقع فيما سبق تحت سيطرة أهل بنفنتيو وهذه المدينة - الواقعة على ارتفاع من البحر - محصنة بحائطين سميكين فى الجهة الجنوبية ، أما من جهة الشمال فهى تواجه البحر . وبعد أن ناشدنا حاكم المدينة الذى يدعى سلطان، تم إمدادنا بكافة الترتيبات اللازمة لرحلتنا تتمثل فى خطابين ، يتضمنان وصفاً لأشخاصنا وأصولنا لحاكمى الإسكندرية وبابليون إذ أن هذين الرجلين خضعا تحت سلطة أمير المؤمنين Amar mominus [٧] الذى يحكم كل المسلمين الذين يسكنون بغداد وأ كسيناري [٨] اللتين تقعان فيما وراء بيت المقدس .

٤ - تركنا مدينة باري متجهين جنوباً لمسافة تسعين ميلاً حيث وصلنا لميناء مدينة تدعى تارنتوم ، وهناك وجدنا ستّا من السفن على ظهرها تسعة آلاف من أسرى مسيحى بنفنتيو وقد حُملت السفينتان الأوليان بثلاثة آلاف من الأسرى فى طريقها إلى افريقيا ، أما السفينتان التاليتان فتم تحميلها بنفس الطريقة بثلاثة آلاف أسير إلى طرابلس .

٥ - أما نحن فقد تم وضعنا أخيراً فى القافلة الثالثة من السفن مع بقية الأسرى فى اتجاهنا إلى ميناء الإسكندرية حيث استغرقت الرحلة ثلاثين يوماً . وعندما علم قبطان السفينة -

(٦) ضرب الإمبراطور لويس الثانى Louis II حصاراً حول مدينة باري Bari فى عام ٨٦٩م. ثم استولى عليها من المسلمين عام ٨٧١م. وبعد وفاته فى عام ٨٧٥م. قامت قوات الإمبراطورية البيزنطية بالاستيلاء عليها . انظر:
C. Diehl and G. Marçais , Le Monde Oriental de 395 à 1081 (Histoire du Moyen Age III) Paris 1936 , p. 440

(٧) أحد الألقاب التى كان يلقب بها الخليفة هو "Prince of the Faithful" أي «أمير المؤمنين» ، ومامن شك أن هذا اللقب هو المشار إليه فى هذا الموضع . وأسماء الخلفاء الذين عاصروا فترة رحلة برنارد هم : المعتز (٨٦٦ - ٨٦٩م.) ، المهتدى (٨٦٩م) ، والمعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢م.) .

(٨) لم يحدث أن أقام الخلفاء فى كل من مدينتى بغداد وسامراء فى وقت واحد. وبحلول عام ٨٣٦م. ، أصبحت بغداد مدمرة بالقدر الذي جعل الخليفة المعتصم ينتقل إلى سامراء . ومالبثت أن استعادت المدينة كيانها بأن اتخذها الخليفة المعتضد عاصمة له بعد خلافته فى عام ٨٩٢م.

ياً – برغبتنا في الهبوط إلى الشاطىء منعنا من ذلك ، ولكن حين
ات) [٩] سنحت أمامنا الفرصة للتزول إلى البر بعد أن سمح لنا

تنا ، تمكنا من الوصول إلى الإسكندرية ومقابلة حاكمها ، فسلمناه
لكنه لم يحرك ساكناً حياله برغم من أنه لم ينكر محتواه ، وأمام
هذا الموقف قام كل منا باعطائه ٣٠٠ (ثلاثين) ديناراً [١٠] أخذها لنفسه ، وحينئذ قام بتحرير خطابات لنا لتقديمها إلى حاكم بابليون . وعادة هؤلاء الناس حساب وزن كل مايمكن وزنه فضلاً عن أنهم عادلوا الستة صولدات (شلنات) [١١] والستة دينارات من عملتنا بثلاثة صولدات وثلاثة دينارات بالنسبة لهم .

إن الإسكندرية هذه تقع على البحر وبها قام القديس مرقس بالدعوة للإنجيل وأصبح أسقفاً فيها ويقع دير القديس مرقس خلف البوابة الشرقية حيث تم دفنه فيما قبل في هذه الكنيسة التي تضم العديد من الرهبان . غير أن البنادقة الذين جاءوا عن طريق البحر تمكنوا من السطو على جثته ونقلها إلى جزيرتهم في غفلة من حراسها . أما فيما وراء البوابة الغربية فيوجد دير يحمل اسم الأربعين قديساً حيث به مايشبه مركزاً للرهبان . ويقع الميناء إلى شمال المدينة كما يشقها جيحون (النيل) من وسطها من جهة الجنوب ، ذلك النهر الذي يروي مصر ليصب في البحر عند الميناء سالف الذكر .

٧ – ومن هنا أبحرنا في اتجاه الجنوب إلى مدينة بابلونيا Babylonia في مصر التي وصلناها بعد ستة أيام ، تلك المدينة كان يحكمها فرعون يوماً وفي ظل حكمه قام يوسف ببناء مخازن الغلال السبعة التي مازالت قائمة حتى الآن.وبمجرد أن وصلنا إلى المدينة قادنا حراسها إلى الحاكم الذي كان يدعوه المسلمون باسم Adelacham[١٢] ، الذي سألنا عن هدف رحلتنا وعن الأمراء الذين نحمل خطابات منهم ولذا أريناه خطابات كل من سلطان المذكور سلفاً وحاكم

---

(٩) إنها عملة اليوري Aurei ، أو العملات الذهبية . إن القيمة العالية للعملة الذهبية جعلت الإمبراطورية الإسلامية رائدة للاقتصاد العالمي ، وأي زائر أوروبي خلال فترة الحكم العباسي ، كان معرضاً لخوض لتجربة مشابهة لتلك التي خاضها برنارد عندما قام بتحويل العملات التي جلبها معه .

(١٠) كان الدينار يصنع من الفضة .

(١١) عملة الصولدي كانت ذهبية .

(١٢) يبدو هذا المسمى شبيه بمنطوق «عبد الحكيم» . لكن الأمير في هذا الموضع هو أحمد بن طولون ، الذي استقل عن الخلافة العباسية عام ٨٦٨م. ومد حكمه إلى سوريا . فربما كان لرسائله الأثر الطيب على تلك المناطق خلال زيارة برنارد لها .

الإسكندرية ، ولكنها لم تنفعنا بشيء ، وعليه قام بإيداعنا السجن . وبعد ستة أيام خطر ببالنا بعون من الله أن يعطى كل منا هذا الحاكم مبلغ ثلاثمائة (ثلاثة عشر) ديناراً كما حدث فى المرة السابقة . وحينئذ قام الحاكم بمنحنا خطابات لم يجرؤ أحد ممن شاهدها فى أى مكان أو مدينة على أن يبتزنا مرة أخرى نظراً لأنه كان الرجل الثانى فى إمبراطورية أمير المؤمنين سالف الذكر . غير أنه حينما كنا ندخل أياً من المدن التى سيلى ذكرها لم يصرح لنا بالخروج منها إلا بعد الحصول على تصريح مكتوب على إحدى الرقائق مقابل دينار أو إثنين .

وهنا وفى هذه المدينة يوجد البطريرك السيد ميخائيل Dom(Lord) Michael [١٣] وهو الذى يتصرف ببركة الله فى شئون الأساقفة والرهبان والمسيحيين فى شتى أرجاء مصر . وفيها كان القانون الوثنى يفرض ضريبة سنوية (ضريبة رؤوس Poll - tax) يدفعها المسيحيون إلى هذا الأمير سالف الذكر مقابل أن يبقوا فى أمان وحرية ، وتقدر قيمة هذه الضريبة بواحدة أو اثنتين أو ثلاث من القطع الذهبية (جنيهات) ، وفى حالة ما إذا كان المسيحى من الطبقة الدنيا (الأفراد أكثر فقراً) فكان عليه أن يدفع ثلاثة عشر ديناراً ، أما إذا لم يتمكن من دفع هذه الثلاث عشر ديناراً فيرسل إلى السجن سواء أكان من أهل البلاد أم كان مسيحياً أجنبياً . ويظل قابعاً فيه حتى يرسل له الله ملاكه ليقبض روحه أو أن يتولى مسيحيون خيرون آخرون اخراجه .

٨ - وظلت الأمور على هذه الوتيرة إلى أن عدنا ثانية فى نهر النيل فى رحلة استغرقت ثلاثة أيام وصلنا بعدها إلى مدينة سيتينيث Sitinuth ، ثم تقدمنا من سيتينيث إلى معالا Maalla ومنها عرجنا على دمياط Damias حيث يحيط بها البحر من جهة الشمال ونهر النيل من بقية الجوانب عدا قطعة قاحلة ضيقة من اليابس . ومن هناك أبحرنا إلى مدينة تنيس حيث يوجد مسيحيون دفعهم تدينهم الشديد إلى أن ينزعوا إلى حسن الضيافة والكرم الشديد . وهذه المدينة ليس لها أية أرض عدا تلك التى تقوم عليها الكنائس وهذا يوضح أرض تنيس المنبسطة التى ترقد فيها جثث أشخاص تم قتلهم فى عهد موسى وتبدو أماكن دفن هذه الجثث وكأنها ثلاثة حوائط .

٩ - ومن تنيس وصلنا إلى مدينة الفرما Farama، حيث قال الملاك ليوسف بأن يفر مع الطفل وأمه (ابنه والأم) ، وقد تم تشييد كنيسة فى ذات الموقع تخليداً لذكرى مريم المباركة Blessed Mary . وفى هذه المدينة ، هناك العديد من الجمال التى يقوم أهالى المنطقة بتأجيرها للغرباء لحمل أمتعتهم عبر الصحراء ، حيث تستغرق الرحلة ستة أيام . وهكذا فالمدخل

---

(١٣) إرتقى السيد ميخائيل منصب البطريرك منذ عام ٨٥٩م. وحتى عام ٨٧١م. وكان قبل ذلك أسقفاً للإسكندرية ، كانت الفسطاط هى محل إقامته ، التى تعد عاصمة لمصر منذ سقوطها بيد المسلمين عام ٦٤١م. وحتى تاريخ تأسيس القاهرة عام ٩٦٩م .

لهذه الصحراء يبدأ من مدينة الفرما تلك ، والصحراء هو الاسم المناسب لها : فهى لاتنتج أعشاباً ولاأية محاصيل مزروعة ، اللهم إلا أشجار النخيل ، إلا إنها بيضاء تماماً ، مثلما هو الحال فى البلاد التى يغطيها الجليد . على طول هذا الطريق ، يوجد نزلان للمسافرين ، واحد منهما يدعى البارا والآخر يدعى الباشارا (١٤) ، ويستطيع المسافرون شراء مايحتاجون إليه من المحال التى يملكها المسيحيون والوثنيون هناك ، لكن لا تنتج هذه الأرض شيئاً على الإطلاق سوى ما سبق وأن ذكرناه . بعد نزل الباشارا وحتى مدينة غزة ، والتى كانت مسقط رأس شمشون ، تبدأ الأرض الخصبة الغنية بكل أنواع الطيبات .

١٠ - وبعد خروجنا من هذا المكان ، توجهنا إلى العريش ومنها وصلنا إلى مدينة الرملة ، والتى يوجد بجوارها الدير الذى يرقد فيه الشهيد جورج المبارك Blessed George the Martyr . وانطلقنا من الرملة إلى قرية عمواس Emmaus ، ومن قرية عمواس وصلنا إلى القدس ، المدينة المقدسة ، وتم استقبالنا فى بيت ضيافة الامبراطور الأمجد تشارلز ، حيث يحصل كل من يتحدث اللسان الرومانى Roman وكل من يبغى التعبد على كرم الضيافة هناك . وبالقرب من بيت الضيافة هذا توجد كنيسة تم تشييدها إحياءً لذكرى السيدة مريم ، وتضم هذه الكنيسة مكتبة فخمة يرعاها هذا الإمبراطور ، كما تحتوى على إثنتى عشرة مكاناً للإقامة وحقول وكرمات وبستان فى وادى چوزافات The Valley of Jehoshaphat . وقبالة بيت الضيافة ، يوجد سوق ، وكان على كل من له تجارة هناك أن يدفع ضريبة سنوية قيمتها جنيهان .

١١ - وداخل حدود هذه المدينة ، توجد أربع كنائس ذات أهمية خاصة . ونجد جدران الكنائس الأربعة متلاصقة مع بعضها البعض . وهناك كنيسة منها تقع جهة الشرق ، والمدينة تحتوى على جبل كلفارى وعلى المكان الذى تم فيه العثور على صليب الرب ، ويطلق على هذه الكنيسة إسم كنيسة قسطنطين البازيليكية The Basilica of Constantine . وهناك كنيسة أخرى إلى الجنوب وثالثة إلى الغرب ؛ وهذه الكنيسة يوجد فى وسطها ضريح الرب The Lord's Sepulchre . حول هذا الضريح ، هناك تسعة أعمدة ، والجدران التى تفصل تلك الأعمدة بنيت من أفضل أنواع الأحجار . توجد أربعة من هذه الأعمدة التسعة أمام المقبرة الحالية ، والأعمدة (التى نجد فى وسطها الحوائط) تحيط بالحجر الذى قام الملاك بدحرجته بعيداً ، وجلس عليه بعد صعود الرب . وإننى أرى أنه ليس من الضرورى الخوض أكثر من ذلك فى موضوع هذه الكنائس حيث أن بيدة Bede يصفها وصفاً وافياً فى تاريخه (١٥) ومع ذلك فهناك

---

(١٤) تلك الأسماء لاتنطبق مع المواضع المعروفة فى الطريق المعاصر . فربما تحمل معانى : البر The Well والبكَرة The Pulley أو البَر The Land و البحر The Sea . انظر :
Tobler's discussion, Dictionnaire de la Terre- Sainte , p. 405 , and , T. wright, op. cit., p. 25, no. 2

(١٥) إن بيدة Bede يعيد ، فى حقيقة الأمر ، معلومات سبق وأن أمدنا بها أدمنون الأول Adomnan I 2/8. وايكيروس Eucherius.

مـايجب ذكـره هنا وهو أنه فى يوم السبت المقـدس Holy Saturday أى عشية عيد الفصح Easter eve[١٦] ، يبدأ القداس مبكراً فى الكنيسة وبعد الانتهاء منه يتم الترتيل بعبارة «وارحمتاه» Kyrie eleison حتى يأتى الملاك فيقوم بإضرام النار فى القناديل التى تتدلى من أعلى الضريح (السابق ذكره) . ويعطى البطريرك قبساً من الضوء إلى الأساقفة وإلى باقى الناس والذين يمكن لكل واحد منهم أن يقوم بإضاءة موضعه من الوقوف . وكان يطلق على هذا البطريرك إسم ثيودوسيوس[١٧] الذى كان قد حمله المسيحيون من ديره الذى يقع على بعد ١٥ ميلاً من القدس وجعلوه بطريركاً على كل المسيحيين فى أرض الميعاد Promised Land بفضل ورعه وتقواه . وبين الكنائس الأربعة السابقة توجد ساحة غير مسقوفة تلمع جدرانها بالذهب وتغطى أرضيتها أنفس الأحجار . وفى وسط الساحة يوجد مكان فسيح تحده أربعة سلاسل تتدلى [١٨] من الكنائس الأربعة السابقة ويقال أن هذا المكان سُرة العالم .

١٢ - وبالإضافة إلى ذلك توجد فى المدينة أيضاً كنيسة أخرى إلى الجنوب فوق جبل صهيون تسمى كنيسة القديس سمعان ، حيث غسل فيها الرب أقدام حوارييه ، وهنا يتدلى تاج الرب الشوكى . وقد ذكر فى المدونات السابقة أن ذات المكان شهد وفاة السيدة مريم . وبالقرب من الكنيسة إلى الشرق توجد كنيسة أخرى تم تشييدها إحياءً لذكرى القديس ستيفن فى نفس المكان الذى يقال أنه رجم فيه . وإلى الشرق أكثر من ذلك توجد كنيسة تم تشييدها إحياءً لذكرى بطرس المبارك فى المكان الذى أظهر فيه نكرانه للرب . وإلى الشمال يقع معبد سليمان الذى يضم مسجداً للمسلمين Saracens. وإلى الجنوب توجد بوابات حديدية قام ملاك الرب بإخراج بطرس من سجنه من خلالها ، وفى مرحلة تالية تم إغلاقها .

١٣ - وفى أثناء مضينا قدماً من القدس هبطنا إلى وادى جوزافات الذى يبعد ميلاً عن المدينة وهو يحتوى على بستان (قرية) الجثمانية Garden of Gethsemane إلى جانب مسقط رأس السيدة مريم حيث توجد كنيسة ضخمة إحياءً لذكراها . وفى البستان (القرية) توجد أيضاً كنيسة السيدة مريم الدائرية التى يوجد بها ضريحها الذى يتحمل سقوط الأمطار بصعوبة لأنه غير مسقوف . وفى نفس المكان توجد كنيسة تحتوى على الأربع موائد الدائرية لعشاء الرب

---

(١٦) هـذا هـو أول وصـف للإحتفال بالنـار المقدسة Holy Fire، لكـن سبق ذكـره قبـل قرن فى Life of Theodore the Sabaite ، انظر :
J., Phocylides, Nea Sion (1911), p. 230 , See also Revue Biblique, Paris, RB 1911,421

(١٧) تولى منصب بطريركاً منذ عام ٨٦٤م. حتى تقريباً عام ٨٨٠م.

(١٨) يجـب أن تقـرأ كلمـة كـاتوسناس Catenas الموجـودة فى النص اللاتينى على إنهـا كلمـة كاترناريوم Catenarum.

، وفى موقع الكنيسة وقعت حادثة الخيانة ضد الرب . وفى وادى جوزافات توجد أيضاً كنيسة أخرى شيدت إحياءً لذكرى القديس ليوفيتيس St. Leontius ويقال أنه فيها سيأتى الرب ليوم الحساب .

١٤ - ومن هذا المكان تقدمنا إلى جبل الزيتون الذى يقع على المنحدر الذى يبدو منه مكان صلاة الرب لأبيه ، وعلى جانب الجبل يتضح المكان الذى أتى فيه المفترون بالمرأة التى عرضوها على الرب بتهمة الزنا : ويحتوي هذا المكان على كنيسة تم تشييدها إحياءً لذكرى القديس يوحنا St. John كما أن الكتابة التى سبق أن كتبها الرب على الأرض تم حفظها على الرخام فى هذه الكنيسة .

١٥ - وعلى قمة هذا الجبل الذى يذكر كثيراً ويبعد عن وادى جوزافات بميل واحد ، حيث يقع مكان صعود الرب إلى الأب ،فيوجد به كنيسة دائرية غير مسقوفة ، ويوجد هناك مذبح تحت السماء المكشوفة فى وسط الكنيسة أى فى نفس مكان صعود الرب ، وعند هذا المذبح تقام الاحتفالات بالقداس .

١٦ - ومن هذا المكان عبرنا إلى بيثانى التى تقع إلى الجنوب أثناء نزولك من الجبل على بعد ميل واحد من جبل الزيتون ، وهنا يوجد دير يظهر فى كنيسته ضريح ليعازر . وبجانب الضريح إلى الشمال توجد البركة التى اغتسل فيها ليعازر بأمر الرب بعد مبعثه عقب صلبه ، ويقال أنه بعد ذلك صار أسقفاً فى إيفيانى Ephesus لأربعين عاماً . وأثناء هبوطك من جبل الزيتون ، تجد على الجانب الغربى منه كتلة من الرخام كان قد امتطى الرب منها جحشاً وتحصر كل تلك المناطق إلى الجنوب ، وفى وادى جوزافات ، بركة سلوان .

١٧ - علاوة على ذلك ، فعندما رحلنا عن القدس وأثناء اتجاهنا إلى بيت لحم الذى يقع على بعد ميل واحد (ستة أميال) من موطن ميلاد الرب ، شاهدنا الحقل الذى كان حبقوق Habakkuk يعمل به حين أمره ملاك الرب بأن يحمل الطعام إلى دنيال Daniel فى بابيلون «تقع بابليون ، حيث تولى نبوخزنصر الحكم ، إلى الجنوب ولكن تسكنها الآن الآفاعى والوحوش البرية» وفى بيت لحم، توجد كنيسة عظيمة جداً شيدت احياءً لذكرى السيدة مريم ، يوجد فى وسطها سرداب تحت حجرة . والطريق إلى داخله يقع إلى الجنوب ، أما الطريق إلى الخارج فيقع إلى الشرق . وهنا يظهر إناء الرب الضخم إلى الغرب من السرداب ، والموضع الذى بكى فيه الرب يقع إلى الشرق ، وهو ذاته الموضع الذى أقيم فيه مذبح يحتشد فيه الناس للاحتفال بالقداس .

وإلى جانب الكنيسة من جهة الجنوب تقع كنيسة الشهداء المباركين الأبرياء . وأخيراً ، وعلى بعد ميل واحد من بيت لحم ، يوجد دير الكهنة المقدسين الذين ظهر لهم الملاك عند ميلاد الرب .

١٨ - أخيـــراً ، وعلـــى بعـــد ثلاثين مـيـــلاً إلى الشـرق من القـدس يقع نــهـر الأردن Jordan الذى يوجد فوقه دير القديس يوحنا المعـمدانى St. John The Baptist . وفى هذه الأماكن توجد أيضاً العديد من الأديرة التى تم تشييدها هناك .

١٩ - ومالبثنا أن وصلنا بعد ميل واحد إلى الغرب من مدينة القدس إلى كنيسة القديسة ماميلا St. Mamilla التى تحتـوى على العـديد من جـثث الشـهـداء الذين بعـد أن ذبحـهم المسلمون ، قامت القديسة ماميلا ببذل جهد كبير لدفنهم هناك .

٢٠ - وبعد رحيلنا من القدس ، المدينة المقدسة ، وصلنا إلى البحر ، وصعـدنا إلى متن السفينة وظللنا نبحر لمدة ستة أيام بصعوبة كبيرة لأن الرياح لم تكن مواتية لاتجاه السفينة . وأخيراً بعد ترك البحر ، وصلنا إلى جبل أوريس (جبل الذهب Mount of Gold) حيث يوجد كهف بسبعة مذابح وفوقه توجد غابــة كبيرة . وبسبب الظلام لايمكن لأحد دخـول هذا الكـــهف إلا باســتـخـدام مـشــاعل مــضـيـئـة . وكـــان رئيس دير الرهبـــان هنـــاك يـــدعى دوم ڤالنتينوس(Dom Valentinus (Lord Valentine

٢١ - وخرجنا من جبل أوريس (جبل الذهب) إلى رومـا . وفى الجانب الشرقى من هذه المدينة ، وفى المكان الذى يدعى لاتران ، توجد كنيسة جيدة البناء شيدت إحياءً لذكرى القديس يوحنا المعمدانى ، وهناك يقع قصر خاص بالرسل . ففى هذا المكان ، يتم احضار مفاتيح المدينة كلها إلى التابع الرسولى كل مساء . وفى الجانب الغربى ، كنيسة القديس بطرس ، أمير الرسل ، والتى تضم جثته . ولاتوجد كنيسة أخرى فى نفس حجم هذه الكنيسة فى العالم أجمع ، كما إنها تحتوى على زخارف متعددة . وفى هذه المدينة تم دفن أعداد لاتحصى من جثث القديسين

٢٢ - وعند هذه المدينة افترقنا عن بعضنا البعض . واتجهت بعد ذلك إلى القديس ميخائيل المعروف باسم صاحب المقبرتين St. Michael of the Two tombs (القديس ميخائيل حيث توجد المقبرتين) ، ويقع هذا المكان على جبل يمتد فرسخين فى البحر . وعلى قمة هذا الجبل أقيمت كنيسة إحياءً لذكـرى القديس ميخائيـل ، ويحيط البحر بالجبل مرتين فى اليوم ، أى فى الصباح والمساء ، ولايمكن الوصول إلى الجبل حتى يتراجع البحر (بفعل الجزر) لكن فى عيد القديس ميخائيل Feast of st. Michael ، حين يرتفـع البحر حول الجبل ينحسر البحر مرة أخرى ، ويقف مثل الحائط على الجانب الأيمن وعلى الجانب الأيسر . وفى هذا اليوم المقدس ، يستطيـع كـل من يأتى لإقامة الصلاة الوصول إلى الجبل فى أية ساعة فـى حين لايســتطيـعــون الوصــول إليــه فى بقـيـة الأيام . وكـان رئيس دير الرهبـان هناك هو فينيمونتيوس Phinimontius وهو من مقاطعة بريتانى Brettony.

٢٣ - الآن سأذكر لكم كيف ينفذ المسيحيون قانون الرب فى القدس وفى مصر : يعيش المسيحيون والوثنيون فى نوع من السلام فيما بينهم . فإذا ماكنت فى رحلة ، والجمل أو الحمار الذى أمتطيه (يمتطيه خادمك) مات على الطريق ، فاضطررت إلى ترك كل أمتعتى بدون

حراسة ، وذهبت إلى المدينة لأحصل على دابة أخرى ، فإننى سأعود لأجد كل ممتلكاتى كما هي دون أن يمسها سوء . هذا هو السلام الذى يتمتعون به هناك . ولكن إذا ماقابلت رجلاً سائراً ليلاً ، أو حتى بالنهار فى المدينة أو بجانب البحر أو فى رحلة ، بدون أى مخطوط أو عهد من ملك أمير هذا البلد ، فسيتم حبسه بالسجن إلى أن يأتى اليوم الذى يُعرف فيه بنفسه ليتبين ما إذا كان جاسوساً أم لا .

٢٤ - قام شعب بنفنتيو بذبح أميرهم [١٩] سيشار Sichard بسبب غطرسته ودمروا قانون المسيحيين بدرجة كبيرة . وبعد ذلك انتشرت الصراعات والنزاعات فيما بينهم إلى أن قبل لويس Lewis (Louis) شقيق تشارلز Charles ولوثر Lothair ، أن يصبح امبراطوراً عليهم بعد أن تلقى دعوة من شعب بنفنتيو له بذلك . ولكن تجرى فى رومانيا Romania[٢٠] أعمال سيئة كثيرة ، كما يوجد بها رجال أشرار منهم من يسرق ومنهم من ينهب ، حتى أن هؤلاء الذين يتمنون الذهاب إلى القديس بطرس لايستطيعون عبور رومانيا إلا إذا كانوا فى صحبة كبيرة ومسلحة بصورة جيدة . أما فيما يخص لمبارديا Lombardy الذى يتولى لويس السابق ذكره حكمها ، فهى هادئة ويسودها التسامح . ويسود السلام أيضاً بين سكان مقاطعة بريتانى . ولديهم عادة ألا وهى أنه إذا ما أوقع رجل ظلماً ورآهما رجل ثالث يمر بالطريق ، يجب عليه أياً كان أن يقتص لهذا الظلم وكأنه قريب للمظلوم . وإذا ماتم التثبت من قيام أحد بارتكاب جريمة السرقة لما يتعدى قيمته أربع دنانير فإما أن يقتل أو يشنق على عصا مسننة .

٢٥ - وأخيراً ، وفى وادى جيشمانية ، شاهدنا أحجاراً مربعة من الرخام عالى الجودة إلى حد أنه يستطيع المرء أن يرى كل مايتمناه فيه وكأنه ينظر فى مرآة .

---

(١٩) كان سيشار Sichard آخر أمير من بنفنتيو له نفوذ واسع . وقد تولى منصبه هذا عام ٨٣٢م. ، وقتل فى عام ٨٣٩م. ، وعين مكانه أمين الصندوق عنده ركاليس Radelchis ، فى عام ٨٦٦م ، أى قبل رحلة برنارد بفترة قصيرة ، قبل ركاليس أن يخضع تحت حكم الامبراطور لويس الأول Louis I.

(٢٠) يبدو أن كلمة رومانيا هنا تعنى «المنطقة المحيطة بروما» مما يتنافى مع ماأورده ابفيانى الراهب Epiphanius the Monk فى قصيدته .